

معهُ يذكُر أكتوبر الآخر؟!

مشاهدة الفلاح العشيح في زمن الحرب، الحرب في بر مصر، السفر، في الأسبوع سبعة أيام، تخفيف الدموع ستة نصوص قصصية للروائي والقاص الكبير: يوسف القعيد. يجمع بينها أنها كلها تتحدث عن مصر الأخرى، مصر التي مضت خوزة القتال على رأسها، وامسكت بندقيتها، وقررت على نحو عقوى وتلقائي، أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.

هذه القصص تقدم آخر صورة تذكارية لمصر الأخرى عند القمه التي بدأت النزول من فوقها عندما وضع السادات قدمه الأولى على أرض فلسطين التي إغتصبها العدو الاسرائيلي الصهيوني. في أكتوبر كل سنة يتصاطلون إبن اب أكتوبر لدرجة أن شهر الانتصار إجم شهر السؤال، وهاتق نسهم في محاوله الأجابه عليهم. تقول لهم. هذا هو أكتوبر الآخر.

طلب الكتاب مباشرة من

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ١١٦١١٢١

MADBOULI renewed

مكتبة مديبول

4 Taha Hani Sq, Tel: 116421

يوسف القعيد

من يذكر مصر الأخرى



من يذكر مصر الأخرى
سته نصوص قصصية

الطبعة الأولى .. وزارة الثقافة
دمشق - سوريا ١٩٨٤

الطبعة الثانية: مكتبة مدهولي
١٩٩٢

يطلب الكتاب مباشرة من

مكتبة مدهولي
٧٨٦٤٦٦ ٩ ميدان طلعت حسرت القاهرة ت
MADBOULI BOOKSHOP 8 Talat Harb Sq. Tel: 726421

مطابع ستار برس للطباعة والنشر
٥٠ ش الحوزات الكهربائية - محطة المطعة
الهرم ت ، ٨١٩١٠

إليهم ...

فريدلاندكاش.
أحمد نبيل الهلالي.
شامندكاش.
حسين عبدالرازق.
أحمد قزويني.
محمد يوسف الجندى.

من يبحثون عن مصر الأخرى في المسجون
أروى جوف الشعب المصري العظيم ..
ومن يشعر الانسان بالخيال الذي بلا حدود
أمام طولاتهم اليومية العظيمة ..

فريدلاندكاش
أحمد نبيل الهلالي

شامندكاش
حسين عبدالرازق

أحمد قزويني
محمد يوسف الجندى

ليس هناك سلام.
والحرب شبر مقيم
لقد سرنا عشرة آلاف ميل
وقطعنا نصف محيط الكرة.
لنصنع الحرب.
ليس هناك سلام في الوطن
فالشوارع مرعبة
والناس أصابهم الجنون
يريدون السكن والعمل والحب
التيقن.

ليس هناك سلام في الخارج
ولا سلام في الداخل
من يشعر بالسعادة؟
من يحس بالرضا؟
لقد خلقت الحرب قوداً
نفا جميعاً

فها هو رأسك يرغل في الشراء.

وها هو جونسون ينعم بشراء أوسع

بينما نهرح نحن بحماس كل صباح

لنصنع المال لأناس لا نملك حتى أن نراهم.

الحرب تعني الموت، لكن.

الأغنياء من الناس لا يموتون.

وحتى تأتي اللحظة التي تنهض فيها

أنت وأنا والأخوين جميعاً

وننقض على رجال الأعمال، والجنرالات،

ورجال الكونغرس،

الذين هم أرا لأنفسهم

مثل تلك الحياة السهلة الفخيمة

وهم يتعاملون فنفس دماء

مواطنيهم من الأمريكيين

وحتى نحسين اللحظة

التي نكذب فيها بسهم جميعاً

إلى القمامة،

حيث ملأهم الحقيقي.

وحتى نحسين اللحظة

التي نملك فيها أن نقرر

كيف نعيش

وما الذي نرغب في النفاذ عنه.

وما الذي نرغب في الموت في سبيله

حتى نقرر ذلك لأنفسنا

لأن يكون هناك سلام*.

* ورقة توزع عند انتهاء العرض في مسرحية «الحكام». من كتاب «مصرح
الشارح في أمريكا» ترجمة عبد السلام رضوان. العرض قدم ٢٤ مرة ويستغرق
٢٠ دقيقة.

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

التي كانت تعرف باسم

رحلة البحث عن مصر الأخرى

لنساء شخصية جداً

التي كانت تعرف باسم

.. هل ما ساكنته مقدمة ١٩ لا أعرف بالتحديد، ولكنه يبدو كذلك.
مع اننى لست من هواة كتابة المقدمات للعمل الأدبي، خصوصاً
عندما يكون هذا العمل ابتداءً، فى هذه الحالة، فإن أى مقدمة، تعنى
أن خللاً ما، أصاب عملية التواصل. وهذا الخلل، إما أن يكون فى
النص الأدبي، أو فى المتلقى. أعرف هذا كله. وما فى هذا الكتاب
قصص قصيرة. ومع هذا لا بد من المقدمة. والمقدمة لكتبتها لأجيب
على سؤال يلح على، قبل أن يطرحه القارئ: كيف أجمع قصصاً
سبق أن نشرتها فى مجموعات قصصية من قبل وأعيد نشرها فى
مجموعة جديدة. وفى سياق جديد تماماً. كيف أفعل هذا مع إيمانى
الثام أن المجموعة القصصية ليست وضع لقصص بعضها بجوار
البعض، لا يجمع بينها سوى الغلاف الذى توضع بداخله. العلاقة
بين القصص أبعد من هذا. والمسألة تتعدى مجرد التجاور الورقى
داخل غلاف واحد.

من المؤكد اننى ارتكبت خطأ ما، أخذت عليه الآخرون عندما
اقتدموا عليه من قبل. خاصة وأن الكشورين الآن - وفى مرحلة
الانفلاس الأدبي والعجز عن الاستمرار فى القول - يعمدون إلى
القصص القديمة، يغيرون فى العناوين وبعض الأسماء واللامع
والامكنة والأزمنة. إنهم يعيدون خلط الأوراق «وذلك تعبير سياسى

تقديم الأعمال الجديدة

لله

للأسف محاربون خلط شريك الماضي بقسيخ الحاضر. فيجعل الأول من الثاني أمراً ليس مقبولاً فقط ولكن حلو المذاق. فكل الأشياء الحلوة أصبحت من ذكريات الزمان الجميل الذي مضى ولن يعود أبداً.

لست أنافع عن نفسي. فإنا لا أتف في قفص اتهام. وببساطة كان يمكنني القول في آخر صفحات هذا الكتاب الجملة التقليدية الشهيرة، وهي إن المؤلف لن يعيد طبع مجموعات القصص كذا وكذا، وهي المجموعات التي أخذت منها هذه القصص. كان يمكن أن أفعل هذا. ولكن للسائلة أبعاد وأعماق من ذلك كله. فإنا لا أفعل ذلك لأنه لدى أزمة إنتاج. بالعكس. مالدني من إنتاج لم ينتشر بعد كثير. وعدم نشره بصورة قريبة زمنياً من فترة كتابته يخلق لي مشكلة دائم بين صورة هذا النتاج كما هي في الواقع، وصورته لدى الآخرين. ولكن تلك حكاية أخرى. كما أنني لا أعرب من مواجهة لحظة راهنة في بر مصر. قلت مالدني. وقلته هنا في مصر. ولم أقله وأنا في المهجر. وهنا لا يقلل من دور من يقولون مالدنيهم في المهجر أبداً. فلكل منا ظروفه. ولا أعتقد أن من يلعبون أدوارهم في المنفى سعداء بذلك أبداً. عموماً هذا بعيد عن حكايتنا الآن.

ويبقى السؤال: لم أجمع هذه القصص القديمة وانتزعها من سياق قصصى سبق وإن نشرت به من قبل، وأنشرها بهذه الصورة الجديدة. أنا أتف أمام السؤال كثيراً. لأنه عذبنى طويلاً. وحاولت

تفسير الموقف. وكان ذلك صعباً. اتهمت نفسي بأننى أحاول استثمار ظرف معين يمر به الوطن العربى. وإن هذا الاستثمار يصل بهذه الصورة إلى مداه. واتهمت نفسي. إن الحنين لأب كتيته قبل لجوئى إلى الأب الذى يطرح هما سياسياً هو السبب وربما كان الأب القديم. يشيع لدى بعض الأمور الانسانية، التى اغتدتها فى النتاج الجديد.

ولكن يبدو أن المسألة أبعد من كل هذا.

إنها تعود إلى ما جرى في بر مصر في نوفمبر سنة ١٩٧٧م. حيث بدأت رحلة فردية. وكافة رحلات جماعة المثقفين الذين يعيشون في الداخل. والذين اسميهم المجاهدين المرابطين في الديار. أو خط الدفاع الأول. أقول إن معظم رحلات هؤلاء المثقفين فردية تماماً. تخلو من دفة المشاركة. ومن تألق العمل الجماعى ومع إنسانه الظهور للتعبد إلى الظهور المرهق. حتى لا تقع جميعاً مرة واحدة. والمستفيد الوحيد من حالة الوقوع هذه، هو العدو، سواء كان هذا العدو في الداخل أو في الخارج.

لا أحب الخوض كثيراً في ظروف القوى الوطنية في الداخل فتكفى الضربات التى توجه إليها من ألف عدو وعدو. ورغم هذا ما تزال على قدميها. تقف وقفة فردية. العدو من الخلف ومن الأمام. وأي ضربات في اتجاه العدو الامامى لا بد وأن تصاحبها ضربات في اتجاه العدو الخلفى.

أعود إلى نقطة بدء الرحلة. ولكنني قبل العودة أقول. أنه في قرينتنا مثل يقول: أن التاجر عندما يقلع فإنه يتوجه إلى دقائره القديمة. يستجديها. وإنما ليست تاجرًا. ولست مفلسًا. ولكني أعيش في حاضر يعاني حالة من الانحلال لم أرها من قبل أبداً. وربما كان هذا هو الناقع لكي أعود إلى أوزاقي القديمة. أبحث فيها عن مصر الأخرى. ذلك الوطن الذي أوشك على السقوط إلى القاع والاختفاء حتى من على جدران الذاكرة. أكتب هذه الشهادة - وليس المقدمة - في الربيع الأول من عام ١٩٨١ للفروض أنني في الربيع. وذكر الربيع ليست له أية دلالة. فالربيع لم يعد هو الربيع. لم تعد الحياة بقادرة على التجدد فيه. ولا الحقول ترتدي ذلك الثوب الأخضر الزاهي. ولا النفس البشرية تثقل على الحياة.

بداية الرحلة تعود إلى ليلة من ليالي نوفمبر ١٩٧٧. ليلة العودة من القدس المحتلة. خرجت ليلتها وأنا في حالة من الذهول. لكي أرى ما يجري أمامي. كانت الجماهير تقف على جانبي الطريق. قوات الأمن لكثرت من الجماهير في العدد. وقفت عن بعد. قلت لنفسى أنه «الإستغناء المسلح». مسافة تفصلني عن الناس حتى أتمكن من الرؤية جيداً. لحظة فاصلة وهامة ما في تلك شك. وصل الموكب. قبله مرت سيارات الأمن المدرعة. أدركت من النظرة الأولى أن الليل بدأ ينزل على القاهرة. لأن سيارات الأمن المدرعة كانت تضيئ أنوارها الصغيرة. وكانت هذه الأنوار تضيئ وتطفئ وفق نظام معين. أذكر أن

الأنوار كانت حمرام. وعندما فوجئت السيارات بحالة الصمت وعدم الفهم وعلى الأقل عدم المشاركة من الناس. بدأت متبهات الصوت تنق وفق نظام معين. ومع أصوات المتبهات انطلق هتاف «بالروح بالدم». ولأن الهتاف في مثل هذه الموكب ينتقل عن طريق العدوى. ننظر بجوارك. فنجد أن الواقف يهتف قهقهة معاً. تردد الكلمات التي تقال بصوت عال. وتلوح بالأيدى وتحدث حالة من الهتاف الجماعي. الذي يتم بروح المشاركة.

أتى الموكب ومر الموكب وكانت الهتافات تترن في أذني. نظرت إلى الجماهير من جديد. في هذه اللحظة انسلت رخامة. مسافة زجاجية. جعلت الأصوات تصلني من عالم ثان. بعيد. ابتعدت الأصوات. هالني ما أشاهده. كانت الأسئلة تنق عظام الرأس بقوة. هل صحيح هذه هي الجماهير المصرية؟ هل هي الجماهير التي أيدت الثورة وعاصرت فترة المد العظيم. واهتفت لتأميم قناة السويس وحملت السلاح في بورسعيد. هل هي جماهير ١٠٩ يونيو؟ هل هي جماهير حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر؟ هل هي جماهير يناير المصري؟ القريب جداً. والذي لا تفصلنا عنه سوى عشرة أشهر فقط. وهي في عمر الشعب فرقة كعب قضيرة الأمد؟ طبعاً لست معادياً لهذه الجماهير. وطرح السؤال لا يتم من أرض مواجهة لها. بقدر ما يتم من أرض الحب لها.

في اللحظة التي كنت أكتب فيها. فإن أعمالى الأدبية تقوِّح برائحة

حيهم والارتباط بهم والرغبة في التمييز عنهم. ولكن السؤال كان بسبب ضخامة المفاجأة.

لست غريباً من مصر. وأعيش فيها كل لحظات العمر. أعرف جيداً الطريقة التي تم بها جمع هذه الجماهير. وخلال الرحلة إلى القدس المحتلة. كنت أرى كل ما تم بهدف إرضاء هذه الجماهير. وزعت على الجمعيات الاستهلاكية كميات من المواد الغذائية. لم تحدث من قبل. ربما منذ سنوات. كانت اللحوم والسجاج والزيت والسكر والأرز تملأ الجمعيات. هذه المواد وصلت إلى القرية وهي المحرومة منها. يجب أن القرية هي التي تنتج كل شيء فكيف تفكر في الحصول عليه قبل هذه الأيام. كان الوضع في الأسواق لا يمكن وصفه سوى بكلمة «الحالة» لا أعرف أن كانت خافة الجوع أو خافة الشيع والامتلاء. في تصوري. أنه كان مطلوباً أن تعيش الناس على الحافة. أن لا تجد ما تأكله. وفي نفس الوقت أن لا تجوع لدرجة الثورة. وأن لا تشيع لدرجة التفكير في أمور حياتها اليومية. إلى أن ١٩٧٧. شهر القفزة نحو الجهول. شهر التضحية بالممكن طلباً للمستحيل. والتضحية بالمعلوم نحو للجهول.

حدثت كثيراً عن التموين والأسعار والطعام. ولكني لا أقصد من هذا إلى القول أن الشعب المصري شعب ثقوده معدته. وأن الطريق إلى ثعنه لا بد وأن يمر بهذه المعدة. لا أعتقد أن هذا المعنى كان هدفي. ولكن من عاش في مصر. في هذه الأيام العصيبة. لا بد من

أن يدرك مدى العناء اليومي الذي كان يعيشه المواطن العادي. الذي تراجعت أحلامه. لدرجة أن الوقوف بجوار نافذة في الأتوبيس أصبح حلاً. والحصول على رغيف من الخبز بعد الوقوف في طابور أكثر من ساعة أمنية. لا يدخل في شكلها أن كان الرغيف أبيض أو أسود أو خالياً من الطوب والزلط. والذين سقطت بيوتهم - لأى سبب والأسباب كثيرة - تراجعت أحلامهم أيضاً. لم يطلبوا سكناً. ولا حتى كانت الإقامة في قبر من امتيازاتهم. ولا حتى في صحن مسجد. ولكن كان الحلم هو الحصول على خيمة تنصب في مكان عام. وحتى هذه الخيمة. كانت هناك قوائم إنتظار بدون حد. حتى يأتى دور تسليم الخيمة.

كان الشهيد نوفمبر ١٩٧٧ طويلاً. قدمت فصوله ببراعة تامة. واستغرق الأمر فترة من الوقت. وكان هذا الشهيد يسير في خطوط متوازية. فيها الحديث عن الحرب كسبب وحيد لكافة همومنا. وكذلك محاولة تشوية صورة العربى في ذهن المصري. واستخدم في ذلك كل شيء حتى الحوادث اليومية. وطريقة تقديمها للناس.

في نوفمبر ١٩٧٧. مواطن من الذين خرجوا في هذه اللواكب قال لى: هذه نقرة وتلك نقرة أخرى. كان الرجل يتصور أن الأمر هو الباب الوحيد المؤدى إلى الرخاء والحياة السهلة. التي لا توجد فيها هموم اقتصادية يومية. ومع هذه قلبيه احساس حاد أن إسرائيل هي عبوة الأول والأخير. قال لى نفس المواطن: هل نسيت أنني من أسرة

استشهد منها سبعة في حروب مع العدو. هل شئت. هل ينسى الدم. انه السائل الوحيد الذي لا يمكن ان يصبح ماء ابداً. اما ان يبقى دماً او ان يتجلط. يفقد شكله السائل فوراً. ويتحول إلى شيء آخر. بيت لى بلدى وكانها من عصف الصدمة قد فقدت حتى قدرتها على الاستيعاب وفهم ما يجرى لها. وبذلك الخائف. كنت أخاف ان يعطينا هذا الشعب العظيم ظهره. وان يدخل كهفه التاريخي للمهود. ان يغمض بالسمت واللامبالاة. «الانتماليه» المعروفة وان ينظر إلى الأمور من بعيد وكأنها لا تخصه.

ولكن الايام التي تلت ذلك اثبتت عكس هذا. قالت بوضوح ان هناك مصر اخرى تماماً. تتحرك وتتفلس وتعيش. ان مصر القفل الايجابي ومصر التائق العظيم ما زالت كما هي. وان المطلوب منا فقط القيام برحلة بحثاً عن مصر الأخرى. مع تذكير الناس الدائم بها.

كانت رحلة البحث عن مصر الأخرى. والتذكير بها صعبة في البداية. ولكن جاءت أحداث معرض القاهرة الدولي للكتاب. والتي حدثت في ختام العام الاول مما يسمى بتطبيع العلاقات مع العدو. لتقول ان كل المطلوب خطوة. خطوة واحدة فقط. ويوجد الانسان نفسه هناك في مصر الأخرى. ما حدث في معرض الكتاب. الذي كان ختاماً عظيماً لعام التطبيع الأول. لم يأت من الفراغ. وليس حدثاً بدون سياق تاريخي. وكانت له آلاف المقدمات. التي حدثت خلال هذا

العام الأول. بل ان الوظيفة العائدية. التي سمعت حيث كان يوجد علم العدو الصهيوني وانزلت هذا العلم ومزقته. ورمت اجزائه. واصابت جزءاً منها سفور العدو الصهيوني. وسمعت بذلك من فرصة التقليل سور له في مكان المعرض. هذه الوظيفة. العظيمة. التي فعلت هذا ومضت دون ان تعرف حتى اسمها. هذه الوظيفة كان هناك من سبقها وقام بالكثير من الاعمال البطولية. في سمعت وبعيداً عن الاشياء. وكان الفعل البطولي اسبح هدفاً وغاية في حد ذاته.

في نوفمبر ١٩٧٧. قلت لنفسى من المؤسف اننى وابناء جيلي قد عشنا هذه الايام. وكان الموقف حاداً. اما ان نسل ستارة كثيفة تفصل بين ظلام اليوم ووهج الأمس. ان لا يكون لكل منا ماض. ان تحرر لنا جميعاً شهادات ميلاد. تبدأ كلها من التاريخ الراهن. ان تفرغ الذاكرة من كافة محتوياتها. او نعيد مصر الأخرى. نستعيدنا ونوجدنا قبل ان تضع منا.

وكانت الرحلة. بدأت الرحلة في التاريخ. ولم يكن الرحيل باتجاه التاريخ خطأ. ولكن لا بد من الاعتراف هنا. ان الرحلة الأخرى. كان لا بد وان تتم باتجاه ظواهر الواقع المعاصر لنا. أي رحلة أخرى في المكان. ان الجري وراء الماضي. الناتج من الاحساس بإفلاس الحاضر لم يكن خطأ. فهو وجه لرحلة من وجهين.

الرحلة في زمننا الراهن اكنت لى. ان اللغة الرؤية القومية للأشياء. ربما كانت خطأ. واته تمت هذا السطح المألوف والعادي بوجود الكثير

من الأمور غير العادية. لهم أن نفكر أعيننا. أن نزيل من عليها
تواب الآلة اليومية. أن نحاول التعامل مع ما تحت السطح. وأن لا
نشارك في ارتكاب جريمة النظر إلى الوضع القائم باعتباره أمراً
عادياً.

في بداية الزمن الجريح. عمنا كثيراً في بحار الكلمات. ثمنا بحثاً
عن الشيء المفقود. ولكن الواقع حولنا كان مغيثاً بالآلاف الأمثلة لمصر
الأخرى. . والتي تحدث كل يوم. ابتداء من سعد خلاوة. الشباب
المصري الذي احتل وحدة صحية في إحدى القرى لحظة تقديم سفير
العدو الصهيوني أوراق اعتماده. احتجاجاً على هذا الاجراء. والذي
استشهد لحظة افتتاح الوحدة الصحية. حتى موظفة البنك. التي
رفضت استبدال العملة لسلاح إسرائيل. وتركزت مكان عملها رفضاً
حتى للتواجد في نفس مكان يتواجد فيه هذا العدو. وحتى وكيل
إحدى الوزارات. الذي بعد من امعدة النظام في هذه الوزارة. الذي
كان يفتتح معرضاً فنياً في أحد المراكز وقومح خلال حفل الافتتاح
بوجود سفير العدو في المكان. توقف وكيل الوزارة عندما شاهد
سفير العدو. وكان الرأي أن ينسحب الجميع احتجاجاً على وجوه
هذا الضيف اللقروض. الضيف الثقيل. الذي لا يستحق حتى لقب
الضيف من الأساس. كان من رأي مساعدي وكيل الوزارة أن
ينسحب الكل من المكان. ولكن وكيل الوزارة رفض فكرة الانسحاب
اصلاً. وقف وقال انه لن ينسحب أبداً. أن مصر بلده والمفروض أن

ينسحب الدخيل. وإن اقترب منه سفيرة العدو سيحدث مالا تعدد
عقباه. ويبدو أن الدخيل فهم ما جرى وانصرف من المكان. مواطن.
عرف أنه يمكنه إرسال خطاب بالبريد إلى الأرض المحتلة. فذهب
ومعه خطاب. لأن له بعض الأهل هناك منذ فترة من الوقت. موظف
البريد الموقر أخذ منه الخطاب. نظر في العنوان. استنكر العنوان.
ورفض أخذ الخطاب. عندما اتهمه صاحب الخطاب أن هناك بريداً
يرسل إلى الأرض المحتلة. قال له الموظف انه لم يحدث أن أرسل
خطاباً واحداً إلى هذه الأرض المحتلة. منذ كان هناك هذا البريد
الغريب.

بعد حادث معرض القاهرة الدولي للكتاب توجه سفير العدو
الصهيوني إلى محل جروبي المشهور وسط العاصمة المصرية. ذهب
إليه لأول مرة. وذلك ليرى مدى شعبيته. وشعبية التطبيع للمفروض
على الناس. في المحل. تطلع السفير الارهابي إلى المصريين. وتطلع
المصريون إليه. جلس الارهابي إلى مائدة في وسط المحل. وبذلك
الطاولات من حوله تملأ من اصحابها. رويداً رويداً كما يقولون في
القصاص. حتى اكتشف السفير انقاتل انه يجلس بمفرده في المحل.
نادى على الجرسون ليدفع الحساب. ولكن الجرسون أخبره أن
الحل قرر أن تكون طلبات السفير بالمجان. وهنا تهلل وجه الارهابي
وشكر الجرسون على هذا الكرم. الجائع. ولكن الجرسون استنكر
قائلاً:

– ولكننا نطلب منك ألا تعود إلى هذا المكان مرة أخرى. فقد خربت بيتنا.

صور مضيئة عدت بها من الرحيل في الزمان إلى الماضي المشرق والرحيل في المكان نحو بدء الآخرين. ويعود الإنسان من رحلته إلى جماعته. جماعة المثقفين. ليجد أن الصورة لديهم أقل إشراقاً من الواقع الخارجى شاملاً. تشرنم المثقفون. سكوت من سكوت وانسحب من الميدان من انسحب. وثاء الكثير منا في القضايا الفرعية والتجلية. وأكثرنا ناضل ولكن في حقول حروف الأبجدية. معنا في بصر الكلمات – وأنا من هؤلاء بالنسبة – في أغلب عجزنا عن الفعل. وطيننا من الكلمات أن تقوم بالدور المطلوب منا. ونحن نعلم مقدماً أن هذه الكلمات مكتوبة في وطن تصل نسبة الأمية فيه إلى ما هو أكثر من ٨٠٪ والكلمة المسموعة هي الاحساس. فنحن في واقع مختلف. تلعب الآن فيه دوراً أهم من العين. تشرنم المثقفون في مواجهة أعناء ثلاثة. العدو الداخلي المتمثل في اليمين. واليمين في الواقع الثقافي. يمين من نوع خاص. يمين يمجّد الجهل ويعيد الخرافة ويرفض المطلق ويعجز عن مواجهة أية قضية من القضايا. يمين حلّمة الوحيد: إلغاء العقل. والعودة بالوطن إلى زمن الجاهلية والغاب وأن يجد في هذا الوطن الإنسان الأداة بدلاً من المواطن المواقف.

العدو الثاني: كان الغزو الثقافي الصهيوني. ففي الوقت الذي لا

توجد فيه ثقافة صهيونية أصلاً. إلا أنه كانت هناك محاولة صهيونية لغزو ثقافتنا وتفريغ عقولنا من محتواه. والعدو الثالث: كان الغزو الثقافي الاستعماري. وأمريكا هي التي تقود هذا الاتجاه. وبعض دول أوروبا الغربية وفي مقدمتها ألمانيا الغربية.

أعداء ثلاثة. وإن كان الهدف واحداً: تفريغ العقل المصري من محتواه وتحويله إلى عقل تابع. لا يطرح السؤال ولكنه يبحث في كسل عن أية أجابة. عقل يقول نعم ولا يحاول الارتفاع إلى مستوى كلمة لا. أنه عقل التابع في أحسن الأحوال. وليس حتى عقل للهر. في مواجهة هذا الوضع الفريد. كان المثقف الوطني، صاحب القضية يبدو محروماً من قاعدته. أي أنه بدون أرض يقف عليها. ولا سماء يتطلع نحوها. تشر بعض نتائج خارج مصر. ولكن ما قيمة الكلمة إن ولدت في الثقب وحرمت من الوصول إلى من كتبت عنهم ومن أجّلهم.

يضاف إلى هذا هموم الحياة اليومية الأخرى لجماعة المثقفين. فالبعض منهم بدون عمل. وبدون سكن. وبدون أي مصدر للرزق. وبدون أي ضمان للغد. وهذا يسلمه إلى حالة من التآكل الداخلي. ببساطة فالمثقف الوطني في وضع فريد. يجد أنه ممنوع عليه أن يعوم وممنوع عليه أن يغرق حتى القاع. وضع فريد. كان من تعرض أن يدفع جماعة المثقفين في مصر إلى التماسك. ولكن لحاصل أن خلافاتهم بعضهم مع بعض، كانت أكثر حدة من

خلافاتهم مع اعتنائهم الثلاثة. وفي ظل هذا، كان هناك سيف السلطان وذهبه، السيف معروف، ترسانة، من القوانين، في هذه البلاد مدة تفرز القوانين اليومية. ومن لم ترهبه ترسانة القوانين، فهناك الذهب، والذهب معروف موائد الجوائز والمنع وفرض النشر والتلعيح النجومى وللأسف انسحب البعض من الميدان لأن ترسانة القوانين ارهبتهم، أو أن بريق الذهب خطف عينيه، فلم يعد بقادر على رؤية أى شئ سوى بريق الذهب. والبعض حاول الجمع بين الاثنين. العمل ضد الذهب شهراً والتمتع ببريقه ليلاً. والليل يخفى حقائق الأشياء.

شغلنى طويلاً الحال الذى أصاب جماعة المثقفين فى مصر، ناقشت الكثيرين. ولكن كان من الواضح أن حالة العجز عن العوم والعجز عن الغرق، أصابت الكل بحالة غريبة، كانت ظاهرة مخيفة، حالة التآكل من الداخل ونهش الذات. والغذاء اليومى على لحم الآخرين والسكر يدم الآخرين. والوصول إلى الذهب على جسر من أجساد الآخرين.

بعد تفكير طويل، اعتقدت -- وذلك مجرد اجتهد، شخص بحث -- أن السبب يكمن فى أننا جميعاً أبناء الطبقة الوسطى. وأه من لعنة هذه الطبقة. والدور المضرب الذى تقوم به فى العالم الثالث كله، حزننا كثيراً فى هذه الأيام لأن أحمد بهاء الدين، وهو واحد من أهم مفكرى بلادنا، واحد الرجال الصامدين فعلاً، حزننا لأنه فى شبابه

كان يندى عمل دراسة من الطبقة الوسطى المصرية. واعتقد أنه كتب بعض أفكاره حول هذا الموضوع فى مقال نشره فى «صباح الخير». فى فترة متقدمة، المشكلة تكمن فى هاتين الكلمتين: الطبقة الوسطى. الإنسان المتوسط معروف عنه عبوديته التامة للملكية، وضعفه أمام أغراء النجومية، ومتذبذب ومتردد، يأخذ القرار ويعمل عن القرار، ويعمل عن العنول، كل هذا يتم فى جزء صغير من الثانية، عاجز عن المواجهة، له وجه وله قناع، والمسافة بين الوجه والقناع بعيدة المدى. يقول، وإن كان القول يقف على التناقض تماماً مما يفعل، يحاول الجمع بين الثنائية الخالدة: ترف اليمين وغناه، وفى نفس الوقت وجاعة اليسار الفكرية، يخوض أغلب معاركة فى حقول اللغة، غير صدامى الطبع، متكلم عظيم، ولكنه فاعل ضئيل، المسألة أن الكل يتحدر من أصول هذه الطبقة، حتى من مارس عمل خفاج، أو كان عاملاً بالفعل فى فترة من فترات العمر. بمجرد أن يصل إلى مرحلة استخدام ذهنه كنوسيلة إنتاج وكمصدر للرزق، بمجرد أن يحدث هذا حتى يصبح منتسباً إلى طبقة أخرى. بمجرد أن تستبدل اليد القلم بالناس أو الآلة، حتى يتحول صاحب هذه اليد نفسياً واجتماعياً وسلوكياً، من طبقة مناسلة إلى طبقة انتهازية. صورة قائمة، أعرف هذا، ولكن حتى فى ظل هذه الظروف، قنعت جماعة المثقفين أفضل ما يمكن تقديمه.

يقول صلاح عيسى فى مقدمة العدد الثانى من مجلته «الثقافة

الوطنية» تحت عنوان: قبل أن يدركنا الطوفان: «ومع الاستقطاب الذي أحدثته سياسة الصلح مع إسرائيل ازداد تشوؤم جماعة المثقفين الوطنيين. إذ تخلى بعضهم في لحظات عن قناعات بشروا بها سنوات طويلة ومع أن مراحل الاستقطاب عموماً هي أكثر الأوضاع ملاءمة لفرز الصفوف، إلا أن جماعة المثقفين الوطنيين كانت قد تعودت على صيغة التوازن الذهبي، التي كان عبد الناصر ربانها الناهر والمقتدر. والتي لا يستطيعها أحد سواه، أو بعده، فجاء عصر الاستقطاب ليتركهم عراة، لأنه يطالبهم بمواقف معلنة وباستقلال كامل في الرأي والتنظيم والحركة. وحين عجزوا عن ذلك وعجزوا في ذات الوقت عن الانتقال إلى الشئفة الأخرى، اضطربت خطواتهم، فالترو الصمت أو الهجرة أو الاثنين معاً.

إن صلاح عيسى يضع يده على أهم مظاهر ذلك الخلل في مواقف المثقفين المصريين وهو غياب، الضمير الجمعي. وفي غياب هذا الضمير قبلته من السهل افتراسهم واحداً بعد الآخر لصالح المشروع الأمريكي الصهيوني.

ورغم كل ما يمكن أن يقال عن جماعة المثقفين في الداخل، إلا أن ما قدموه حتى في ظل هذه الظروف الصعبة، والنكاسية، وحمل إلى حد الإعجاز في أحوال كثيرة، والتركيز على الجوانب القائمة في الصورة، الهدف الوحيد منه، وضع انتباههم العظيم في حجمة الطبيعي. فهذا الانتباه إنما يتم في أكثر الأوقات صعبة، وهذا ما يجعله يتعدى البطولات اليومية العابية.

يبقى الجانب المو من المرحلة، سؤال كنت أوجهه إلى كل صديق عربي، يفتح الملف الحزين، كنت أَسْأَلُ: ماذا فعلتم في مواجهة ماتم. ؟ ليس السؤال دفاعاً عما جرى، ولكن ماتم، ابتداء من نوفمبر ١٩٧٧. وضع الكل في مأزق: إما السير في هذا الاتجاه، وإما الطريق الآخر: حرب التحرير العربية الشاملة. كان يقال لي أنها إحدى فترات الظلام والتدهور، وأن الوطن القائد عندما ينزل إلى القاع، فإنه يأخذ الكل معه إلى هذا القاع. ولكن السؤال كان يتحول إلى تساؤل، بمعنى أن طرحه لا ينتظر لجابة من أحد أبداً.

في بعض أحيان رحلتي بحثاً عن مصر الأخرى، التي أوشكت أن تهبط منا إلى القاع، كنت أتصور أن هذه الرحلة لا مبرر لها، لا الرحلة إلى مرحلة مضبوطة مضت، ولا الرحلة في المكان إلى من يكتبون كلمة لا يدعائهم ولحظات حريتهم وتضحياتهم القومية. ولكن يبدو أن الإنسان مفروض عليه - في بعض الأحيان - أن يصل إلى قلب اللحظة الراهنة من خلال رحلة تبدأ من بعيد.

سأحدث عن القصص مرتين، في المرة الأولى عن زمن وظروف كتابتها والثانية ظروف نشرها.

شهادة الفلاح الفصيح في زمن الحرب، خرجت من الأحاسيس بالمرارة والمهانة التي ولدتها ضرب القوي الصهيوني لمصنع أبوزعيل. تلك الأيام التي سمينا فيها ما يقوم به العدو بات غارات العمق، والتي وصلت حد أنقاض الصعيد، الجوانب البعيدة. كانت غارات

العذوق وقد وصلت إلى القلب المصري، إلى صميم هذا القلب محاولة من الأعداء لضرب الروح المصرية المتوثبة، التي عثرت على نفسها في حرب الاستنزاف العظيمة. والتي تعد واحدة من الحروب العربية الإسرائيلية، "حرب كاملة مستقلة، رغم أنها لا تذكر كثيراً في زماننا، وحتى عندما تذكر فهي لا توضع في مكانها الطبيعي والصحيح، سمعت بخبر ضرب للصنع في الخامسة مساءً، وكنت في حي شعبي فقير، ورغم أن الخبر يومها قدم بصورة حبابية، إلا أنه استقر في النفوس، نزلات الكتلعات على البيوت القديمة، والشوارع التي فقدت شكل الشوارع، فزولت المسيرة،

سافرت في نفس الليلة إلى قريتي، «الضهرية»، وهذه القرية، كانت تبدو بعيدة من قبل عن أحدث المدن المتوهجة بالضوء الليلي، ولكن الأمر هذه المرة يخص الوطن، بدت القرية تفتح عينيها وأذنيها وتشرب الحدث، وتكلم بطريقتها الخاصة، بدت البيوت الطينية والحقول المتراصة الأطراف، تخبزن المهابة ولا تضعها في رصيد الصور الأيوي القديم، ولكنها شبعناها الزاد والزواد في رحلتها للحج إلى عتبات الثورة، دهشني رد الفعل، الذي كان شديد الاختلاف عن المدينة التي حضرت منها منذ قليل، وقد مدت «شهانة الفلاح الفصيح في زمن الحرب» التي نشرت في مجلة «الأب» البيروتية في وقتها، ثم صدرت ضمن مجموعتي القصصية «طرح البحر»، وكلما عدت إليها بعد ذلك، كلما عشت هذه الليلة، التي بدلت في حي شعبي في

القاهرة، وانتهت في «الضهرية»، أن الليلة لها طعم خاص جداً، يتحدث في النفس بالمعاني الواضحة، وما تزال قادرة على إثارتها في النفس حتى الآن.

«الحرب في بر مصر» قصة قصيرة، وقد أصبح عنوانها عنواناً لرواية صدرت لي بعد حرب أكتوبر، المسافة بينهما – القصة والرواية – تبدو طويلة، في القصة، وقفت أمام قضية، ربما كانت فريدة إلى حد ما، ولكنها تجسد الكثير من ملامح الواقع المصري، الذي كان مثفجراً، ويبحث عن الشكل الذي يعبر به عن ذلك التغير.

فقد حدث في عام ١٩٧١ أن هرب من الخدمة العسكرية في الميدان شاب وعاد إلى الضهرية، هو شاب لا يمكن أن يهرب من الميدان، قال لكل من قبله: إن الانتظار طال والعيون تأكلت من كثرة التعذيب، قال إنه تعب من كثرة العبور بالنظارات، وإن الحلم بالعبور 'سيح مكرراً لدرجة أنه فقد مذاقة الخاص'. لم يكن مصرياً هارباً من الخدمة العسكرية ولا غاراً، ولكنه كان محتجاً، كانت عودته الاحتجاجية تقول بوضوح: إن الطريق الوحيد لتحرير التراب المصري من الدنس الصهيوني لن يمر إلا عبر وضوء الدم، بل إن حكاية مصري قالت لي: إن وضوء الدم لم يعد يكفي أبداً.

«الحرب في بر مصر»، تبدأ من الخامس من يونيو وتنتهي عند القبض على مصري، ومعاملة باعتباره مجتأ هارباً من الضمة

العسكرية، وتتحدث على طريقة الراوي الشعبي عن الشجاعة والرجال والدفاع عن حدود الوطن ضد الأعداء، والغريب لنتى عندما جلست بعد ذلك سنوات لأكتب الرواية التى حملت نفس الاسم، الحرب فى بر مصر، لم أجد لبطلتها من اسم سوى مصرى أيضاً.

«السفر» فى الأسبوع سبعة أيام» خرجنا من تجربة شخصية جداً، جندت فى القوات المسلحة فى ديسمبر سنة ١٩٦٥، وكان من المفروض أن أسرح من الخدمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧، ولكن الذى حدث فى يونيو جعل التسريح من الخدمة يؤجل إلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، فقد سرحت من الخدمة فى منتصف سنة ١٩٧٢، واستدعيت من جديد قبل حرب أكتوبر، السفر تجربة مقاتل من الريف يسافر من قريته إلى وحدته، ومن خلال السفر يطل الشوق القديم لليوم الذى سنجوز فيه الأرض، السفر نشرت فى إحدى المجلات، وإن كنت لم أسمها إلى إحدى مجموعاتي القصصية، «فى الأسبوع سبعة أيام» غنائية مقاتل تم تسريحه من الخدمة العسكرية ثم استدعى قبل الحرب مباشرة، وينهب إلى ميدان القتال ويعود زملاؤه إلى أمه لإبلاغها خبر إستشهاده.

عند كتابة هذا العمل، لم يكن فى ذهنى أكثر من نية المشاركة فى عمل وطنى، يوم أن أذيع البيان رقم واحد، فى الثانية من بعد ظهر السادس من أكتوبر، شعور الإنسان أنه إزاء حرب تحرير، وعشة أصابت الإنسان، دوار خفيف، شعور من الصعب وصفه.

فى الأسبوع سبعة أيام، كانت رد الفعل الأولى للحرب، عندما اهتزت أعماق الإنسان، بعد أن انتهت من كتابة هذه الرواية القصيرة، كنت سعيداً بالغنائية الموجودة فيها، وكنت أريد بعض مقاطعها بينى وبين نفسى، ولكن الذى حدث أنه بعد فترة من الوقت، انفصلت عن عملى، وقامت بينى وبينه تلك المسافة التى تبدأ صغيرة، ثم تتسع وتجعل الإنسان يرى العمل بعين أخرى، ترى فيه ما لم تراه من قبل، الموقف الذى تغير لم يكن من الرواية القصيرة، لأن الموقف النفسى كان قد بدأ يتغير شيئا الحرب نفسها، الحرب التى جرت قبل حدوثها على أرض الواقع فى خيال كل منا، كانت هذه الحرب قد فقت غطاءها العاطفى فى نفسى، ونبتت أول خطوط روايتى: «الحرب فى بر مصر».

كان يودى أن أضم روايتى «الحرب فى بر مصر» إلى هذا الكتاب، ولكنها عمل كبير من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا تتحدث عن مصر الأخرى، مصر المتألقة المتوهجة بالكبرياء، فلا أحد يترك عند قراءته لها، أين تنتهى مصر الأخرى، لتبدأ مصر التى نعيشها الآن.

تجفيف الدموع تتحدث عن فترة ما بعد الحرب، مجتهد شاب أصبح محارباً قديماً يبحث عن الشفاء، الذى لن يجده أبداً، فيها سمات رومانسية ربما لا تناسب الحديث عن بطل، لكن هذا ما جرى فى القصة، وفى الواقع فإنه قد تم استثمار حريهم وانتصارهم ونصص وحكايات بطولاتهم، وبقوا هم كالفائز الحاضر فى

مهرجان ما بعد الحرب، تخفيف الذموج نشرت في مجلة أدبية
وصدرت في مجموعة قصص قصيرة، تحمل نفس العنوان.

نشرى لهذه القصص من جديد بعكس رغبتى فى إعادة قراءتها
لكثير من مرة، كنت أحيق فى بطولة الأيام المفقودة، أصرخ فيها.
أطلب منها سماعى. أن تكون الحائض الذى أسند عليه ظهري المثعب.
وأتساءل: هل يعود الذى مضى؟ ولكن يبدو أن الاجابة على
السؤال مستحيلة.

عموما هى ليست محاولة للانكفاء على الماضى ؟ أو محاولة
الحياة على ضوئه فى مواجهة ظلام الحاضر. بقدر ما هى محاولة
إعادة خلق كل لحظة من هذا الماضى. حتى أصله بالجانب الآخر
لحاضرى بأى صورة من الصور.

لدى الآن الكثير من المشروعات. بعد أن وضعت يدي على حقيقة
مصر الأخرى. لدى روايتى الطويلة «شكاوى المصرى الفسيح»
والتي أكتب الجزء الأخير منها، للمرة الأخيرة فى هذه الأيام. ولدى
رواية أخرى عن واقع ما بعد الغزو السلمى الذى قام به الأعداء لبر
مصر. مابتى جاهزة وكل المطلوب أن يجلس الانسان ليكتبها. لا
أعرف إن كنت سأسميها «الليل فى مصر» أو «شهداء أكتوبر»
يعودون هذا الأسبوع، ولدى عمل عن تجليات ظهور جمال عبد
الناصر فى صعيد مصر. أعمال كثيرة، وأحلام ليست لها حدود.
ولكن المأساة أننا نأكل أنفسنا. نعمل أولاً لكن نعيش. ولعبة الواقع

الاجتماعى تقوم على ركلنا إلى أعلى. سلة بعد أخرى. ويصبح
مجرد الاستمرار فى هذا الوضع مأساة العمر الجميل. نلثت وراء
بقعة العيش. وراء البريق الاجتماعى الخداع. ثم نعود منهكين
متعبين ولا نجد فى داخلنا سوى البقايا فقط.

فى كل يوم يخرج الانسان من بيته وكأنه خارج من كهف قديم.
ثم نعود إلى البيت، وقد لف القلب حزن هرم عجوز. والحزن متجدد
مع كل يوم. هذا اليوم. أحزن لأننى شاهدت العلم الصهيونى،
يدنس سماء القاهرة. ويوم آخر لأننى شاهدت جواز سفر صهيونى
ملقى فوق مائدة فى أحد المطاعم أثناء خروجى من هنا المنعم
وعتقت اكتشف أنه حتى الهواء الذى كنت أتنفسه داخل هذا المطعم.
منذ لحظات، كان هواء ملوثاً بالصهيونية.

لا يكفى أن يأسف الانسان فى بعض الأحيان لأنه يعيش هذه
الأيام فى مصر. ولكنه فى بعض الأحيان يفكر فى الرحيل. ولكنه
يتوقف ويتساءل: عندما يرحل الانسان. قالى أين! وإن رحل ماذا
يأخذ معه؟ هل يأخذ أوقاته، أقالمه، مشروعات قصصه؟ هل يأخذ
ننيلاً من الزحام البشرى المحب إلى النفس؟ هل يأخذ قليلاً من
رائحة عرق الأجساد المتعبة؟ مع قليل من رائحة الأقواء التى مر
عليها أكثر من يوم دون أن تأكل؟ يرحل الإنسان؟ كيف يكتشف
الانسان أنه يريد أن يأخذ معه رائحة الأروقة الساخنة الخارجة من
الأفئدة فى الأحياء الشعبية. وقليلاً من الطوابير المزدحمة أمام

الجمعيات الاستهلاكية. وزحام البشر في الأنوبيسات. يريد أن يأخذ
 النكتات وعربات الكشوى والمقاهى. وأن يأخذ معه صمت الريف
 وخضرة الحقول. وغناء السواقي الذي يجرح صمت الليل.
 باختصار. يكتشف الإنسان أنه لا بد وأن يأخذ مصر بكل ما فيها
 معه. وهكذا يبدو السفر المستحيل. ولا بد من البقاء هنا. واكتشف
 في جلستي أنني لم أغادر أرض مصر منذ مارس ١٩٧٧. وحتى قبل
 هذا التاريخ لم أتركها سوى مرتين فقط في العمر كله.
 ومعتذرة لهذه الشهادة الشخصية. التي تحولت إلى مقدمة
 للقصص. . ولم لكن أريدها. وربما كانت المرة الأولى. وربما كانت
 المرة الأخيرة. التي أقدم فيها عملاً لى.

يوسف القعيد

الضهرية - بحيرة

القاهرة ١ ، مدينة نصر . ربيع ١٩٨١.

شهادة الفلاح المصح

فى زمن الحرب

يا أشرف من سئل ويا أكرم من أجاب

« وقد تروى على هذه الغارة أن استشهد شمعون عاملاً مدنياً وأصيب تسعة وستون عاملاً بأصابات مختلفة وقد تم نقل المصابين إلى المستشفيات فوراً، ثم ارتفع عدد الضحايا في المساء إلى سبعين شهيداً... »

« متحدث باسم وزارة الداخلية »

شهر فبراير من كل عام، تبدأ الحياة في تغيير جلدتها، تثبت أوراق خضراء صغيرة مفسولة بالندى، على فروع الأشجار العارية، تملأ الشوارع والقنوات الصغيرة بالمياه، تثبت في الأرض نباتات القطن والبطاطس والبرسيم، يختلط لونها الأخضر الزاهي بسمرة الأرض الرصاصية، وعلى الجسور وفي الحارات يبدأ الدخان الرمادي تجاف في الانتشار بين الطين الرصاصي اللامع بفعل الشمس.

فبراير من كل عام، تأتي الشمس الربيعية، بدفئتها لكن توقف الأشياء التي أماتها الشتاء الماضي، توقف الأشجار وعواطف الناس ولعان الحياة في نظراتهم واحمرار الوجوه وتذكر الناس بانتهاج لشتاء ويمضي الربيع حاملاً معه الأمل والخلاص.

فبراير من كل عام، يحلو للرجال في الضميرية أن يجلسوا في

قال الفلاح القصيح: حدث ما حدث في المساس من ذي الحجة، ستة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف من بعد هجرة الحبيب. الخامس من أُمشير سنة ست وثمانين وستمائة وألف قبطية. الموافق الثاني عشر من فبراير سنة سبعين وتسعمائة وألف من بعد ميلاد السيد المسيح.

يقول مؤلف هذه القصة: اليوم هو يوم الخميس؛ في المساء، تحدثوا، تناولوا الأمر ضمن ما تناولوه من أمور لفرى، هامت الكلمات في بحار الكفة، تحدثوا عن الخوف والشجاعة، والحياة والموت والبلاد البعيدة والغربة والحنين. وفي آخر الأمر - في تلك الليلة من فبراير سنة ١٩٧٠ - اتفقوا على أن الأمور لم تعد تطلق.

ثم انصرف كلٌ منهم لحال سبيله .. ذلك ما كان ..
إليك القصة من أولها

الصباح الباكر، بعد صلاة الصبح على المصاطب، في الباحة الواسعة أمام مسجد سيدى عبد الله النشأوى يتمتعون بختمة الصلاة، يتمتعون بنفحة الشمس، يذهبون به الجليد الشتوى القائم فى الأعماق، يستنشقون الهواء الناقى، يرفعون عيونهم نحو الشمس الشتوية، يبهضون البرد المتجمد فى الصدور ويستعدون لحجى الربيع.

وعند ارتفاع الضحى، يذهبون الى الحقول، يطمطئ كل منهم، يعلن كسله فى استرخاء مشيته، وقد يحدث نفسه فيفضحه بخار أبيض يخرج من فمه مع الكلمات، وقد يقف نالطراً حواليه، الى زراعة جاره، وقد يرغب فى العمل فى الحقول، غير أن احساسه الداخلى بأن النهار فكرة كعب، ومضة حياة قصيرة الأمد، يقعه عن العمل، وحتى الحقول فى هذه الفترة من السنة لا تحتاج الى عمل كثير، فتكون حقول الأرض قد زُرعت وبذور القمح قد اختمرت فى باطن الأرض وقاربت وقت الأنبات، والبرسيم يملأ الحقول بلونه الأخضر الغامق، يسيل عليه لون زهوره البيضاء، ويتعايل مع هبات الرياح، التى تأتى عاتية من الجنوب،

يذهب الرجال الى الحقول، يعودون فى آخر النهار، وآخر النهار هو وقت صلاة العصر، ولا يتناولون طعام الغداء فى الحقول، لقصر النهار، ويعودون، وكل منهم يدرك أن الربيع له رائحة فى الحقول، تتحدد هذه الرائحة فى أنوفهم، من النعام للنعام الذى يليه بجملة

أشياء، برائحة زهور النباتات، بطبونة الأرض تحت الأقدام، وشكلها الغامق السواد، ورائحة اختصارها من كثرة ما شربت من مياه الأمطار. وعند قدوم الربيع، يسمعون طنين النحل، يطير فوق الأزهار فى الحقول، مجدداً أمام العيون، معانى الخصب والنماء، ويبدو للعيون، ساعة العصارى الطرية، دخان أزرق غامق، يختلط بنسعات الهواء الباردة، التى تحمل رائحة الشتاء خارجاً من تار أوقدها أحدهم، أمام خصة لعمل الشاى، أو إشعال نار لشرب الجوزة.

وفى المساء يعودون الى منازلهم، أو الى الجامع، أو للجلوس على المصاطب، يتحدثون، كلمات موشاة بالوسن فى هذا الجو البارد، فى يومنا هذا، عاد الرجال ساعة العصارى وكل منهم يشغله ما سمعه من الراديو فى عصر اليوم، والرجال هنا، لا يقتدرون على مواجهة الأمور البعيدة عن نطاق حياتهم بمفردهم. أنهم يلوكون المعانى فى أذهانهم ويستبقون الأفكار والصور حتى يجتمع الشمل فى المسجد أو على المصاطب كى يناقشوا الأمور معاً.

«إن مجموعة من طائرات العدو قامت بالإغارة صباح اليوم على مصنع» وفى لحظة سماع كل منهم النبا من الراديو، أو من الجيران، وقف قليلاً، واستراحت نظراته المتعبة الصبورة فى سماء فبراير الدافئة الزرقاء، فوجد أن كل ما حوله يناديه بالصبر، صبر أهوى طويل، وبإلا يستطيع هو أن يفعل؟ لا يعلق على ما سمعه،

يستأنف كل منهم عمله، تعبر ذهنه فكرة محددة عن الموت، وقد يتذكر أن مقبرة العائلة لم تجدد منذ زمن طويل، وأنه لم يصل الصبح ولا الظهر، غير أنه في نهاية الأمر يمسك قاسه، يجفف العرق الشئوي البارد على جبهته، ثم يرجئ التفكير في هذا الأمر حتى يعود إلى البلد.

في الباحة الواسعة، أمام المسجد، أو في عشة تعلب، يجتمع الرجال، يشربون الشاي، يدخلون المعسل، مشتركين في ثمنه، مستمعين إلى نشرة الأخبار وإلى حديث أهل العلم من رجال البلد، حيث يقدمون تفسيراً كاملاً لما حدث لحضر الغالية هذا الصباح.

في ليلة الجمعة، من كل أسبوع، تضام مثنية سيدي أحمد عبد الله النشابي بالنور حتى منتصف الليل، ويكثر زهاب حاملي النور إلى مقام الجامع، نسوة وصبياناً، تعلقت لسلامهم الباهتة، فأتوا يوقون بالعود، وفي هذه الليلة يكثر الزحام عند الحلاق، وأمام الدكاكين، فهذه ليلة مبروكة.

عاد المرسى إلى البلد، مثل كل الرجال وتفكيره موزع بين أمرين، أولهما أن عيد الأضحى المبارك يوم الاثنين، باق عليه ثلاثة أيام فقط، وقدوم العيد معناه التفكير في شراء ملابس جديدة لأولاده وشراء لحوم العيد، فنذبح الضحية ترف لا يقدر عليه إلا الأغنياء، ومعناه أيضاً أن يدير تقوياً كى يعطي أولاده وإبناء أتريكة مصروفهم في يوم العيد، وكان الأمر الثاني، هو ما سمعه المرسى عن ضرب مصنع أبو زعل.

المرسى في طريق عودته إلى البلد، أنه يمر الآن على مدافن القبط حملت إليه الريح صوت الشيخ محمود من فوق مثانة الجامع، تنامت إليه الكلمات، حاول أن يلتقطها غير أن الريح بعثرت بقيتها، ولكنه أدرك ما كان يقلل من فوق مثانة الجامع. - يا أشرف من سئل ويا أكرم من أجاب.

توجه المرسى إلى الجامع، توشاً وحمل بلفته، دخل إلى صحن الجامع، وقف متجهاً إلى القبلة، «هو مصنع مدنى في منطقة أبى زعل، سمعها وهو يقف في الصف، إستمع إلى الغاتحة، أبات من القرآن الكريم، ركع، سجد، جلس يختم الصلاة، وقام إلى ضريح سيدي أحمد النشابي، قرأ الغاتحة، وفي صحن الجامع وكان الظلام قد حل، سمع الرجال يسألون الشيخ محمود عما سمعوه.

- وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل.

قال الشيخ محمود ذلك وهو مغمض العينين، رافعاً رأسه إلى سقف الجامع، ويده تعبت بحبات المسبحة، المرسى حائر، هبت عليه في صحن الجامع نسمة هواء شتوية، فأحس بالشوق لحجرة نومه الدافئة، وأزوجته، غير أنه كان يود أن يستمع إلى الكثير.

جلس الرجال في دائرة حول الشيخ محمود، وكان الشيخ محمود يحكى حكايا قديمة، والجميع ينصتون إليه، وكانت النسوة داخلات خارجات، يرضعن النور في صنفق بجانب المقام، نذور شرنها في أيام كرب وضيق ثم أتى الفرج، وكان لا يد من الوفاء بالوعود.

إمام المسجد، سوى المرسى جلبابه، ركب مناسه، يصق على الأرض، وسار في طريقه إلى منزله، في الظلام الشتوي الدسم، كان التماح العميون يشق ظلام الليل، على باب حارتهم، وقف قليلا، واضعا يديه في فتحتي جلبابه، يرد السلام على المارين، ويعزم عليهم، وابنه الصغير يقف بين قدميه، لا يظهر من الأرض، يحرك يديه ورأسه حركات عفوية:

— أبويا جه . . أبويا جه.

ذهب المرسى هذا النساء إلى المسجد، وهو يأمل أن يجد عند الشيخ محمود خلا لكل الأشياء التي يقف امامها عاجزاً، غير أنه ككل المرات السابقة، وهي كثيرة، ذهب، صلي، لف حول المقام، مر بيده على سترة الشيخ ثم مسح بها صدره وجبهته وقرا الفاتحة، سأل، سمع الأجابة عن سؤاله وخرج وفي ذهنه شي ما لم يكتمل، أحساس لا اسم له البتة، وكان هذا معناه أن يؤجل هذا الموضوع، أن يرجئه ثم يعلوه مع الأيام غبار، وبعد الغبار بسيطاً، ثم يتكاثف ويتكاثف.

أحياناً، كان ما يتردد في ذهن المرسى، ليس فتوى دينية، ولكنه كان يعتقد منذ السفر أن الشيخ محمود لا بد وأن يعلم كل شي، وأن هذا المسجد ليس مثذنة تشق الفراغ أمام تامله بل هو مكان يلجأ إليه كل الناس وقت الشدة.

وفي منزله، جلس في المذخرة، فوق الحصيرة وضعت له زوجته

مستأناً خلف ظهره، جلس أحد ابنائه في حجرة، سأل عن أولاده، قام إلى الزريبة وأطعمان بنفسه على مواشيه، ثم عاد، وكان طعام العشاء فوق الطاولة، جلس بين أولاده وزوجته، وكانت زوجته تستعد لعمل الشاي له، ثم تآكل فهما بعد، كانت تضع القوالح في المتعد.

— أنا عايز كراسة وقلم ورسايس يايا.

يهمهم المرسى بكلمات غير مفهومة، لا يرد، يشرب الشاي، يشربه بسرعة كي يخرج وهو يفكر في بيع كيلة نزة في سوق يوم السبت كي يصرف من ثمتها في يوم العيد.

— انت ما لك ياسى المرسى؟

قالتها زوجته وهو بهم بالخروج، في الخارج، صلي العشاء في المسجد، ذهب إلى العشة، جلس وهو يترنم لنفسه وفي صوت وأطرح بمقطع من موال حزين عن الأدهم، بطل الناحية كلها وحبيب قلبه، وترنحف حكاية الأدهم في صدره كأنها أنين موجه، كاسى بنخال فطرة قطرة، فيدرك المرسى أننا كلنا راحلون، مسافرون في رحم الليل، إلى بلاد الغربة والحرز.

سألوه في العشة عن حاله وهم يدخنون، أبتم، عزاً سوء الحال إلى برودة الجو، شرب الشاي، نفخ بقمه بخار الشاي الأبيض، فانناح في المسافة بيته وبين رفاة السهر.

— نا تلاقى اللي ماتوا في المصنع ميثين واحد.

انتالت بقية التعليقات، كانت في أيديهم جريدة يومية، غير أن

لخبرها كانت تتناول أموراً أخرى، «لها» يقترح وقف إطلاق النار في
الغداة، «أمريكا غاضبة بسبب العمليات العسكرية للصربية»
والشاة تعبر وتدمر، «الطائرات تلك مواقع العدو» من الراديو
الموضوع في مكان مرتفع، تنساب أغنية خلية، يرقص أحد الرجال
بحسبه على أنفاسها، وهو يحن الجوزة، لتعقدت سماعات الدخان
في جو العشة، والتملظت ببخار الشاي الأبيض، مد المرسي يده من
فتحة صغيرة خارج العشة، فلجحت نسمة شتوية باردة، فقرر
الخروج، في الخارج، في الشارع الرئيسي، في الضهيرة، كان الليل
والظلام والنجوم والسماء الداكنة السوداء، ولا يدرك المرسي لم فكر
في أعماق الظلام في حروف اللغة التي تعلمها في الزمان القديم،
قبل أن يمنعه والده من الذهاب إلى المدرسة، كي يساعد في الحقل،
لذلك أنه لا يذكر سوى حرفاً أو حرفين، وقف، ضيق عينيه وغير
ملاحج وجهه، رفع يده إلى خده في محاولة للتذكر، غير أنه أدرك أنه
مفروز في طين الضهيرة حتى قامته.

— لا بد من الصدام المسلح مع إسرائيل.

— دي حتمية.

توقف المرسي، مر به اثنان من شهاب المدارس، لم يتبين
ملاحهما في الظلام، أدار كلامهما في ذهنه وراح يتذكر ما سمعه
بين كركرة الجوزة ومصصات شرب الشاي في العشة، ولجأة
وجد ذهنه يتجه إلى ابنه الأكبر، التلميذ في المدرسة الإعدادية، وجد

نفسه يمتص كل شيء، كل ما شغل ذهنه هذه الليلة، ورسم لهذا
الابن مستقبله، أدرك بذهنه البسيط أن كل شيء لم يذهب هباء، وأن
هناك في الدنيا الواسعة، أشياء تولغ حد الروعة لم يعشها بعد،
يتراكم الحزن والعناد والتصميم في بئر القلب، طبقات فوق طبقات،
— ربنا يعوض صبر المسنين خير.

قال للمرسي، ولكن لتفسه.

وعلى باب منزله يسجد أن فتحت زوجته، اندفعت موجة باردة
من فتحة الباب، ودخل، كانت زوجته تقف وسط الدار بيدها ليه
جاز، ولمح في وسط الدار ليفة وصابونة وفاراً جديداً له،
— أنت غيت ليه الليلة؟

قالتها زوجته بحروف معطوطة، وبكلمات انثوية لينة، غير أنه
لوى بوزة، ولم يرد عليها، اتجه إلى الزريبة، هناك اتقى وسط
مواشيه وتبول، ثم عاد إلى حجرة نومهم، حيث ينام الجميع، أن
المرسي يخلع ملابسه الآن، كي يلبس الجلباب الذي ينام به على
الحجم، الأيام تمضي بالمرسي، يزرع، يقطع، ينام، يحلم بالليل ببلاد
مغسولة بالحنين، وفي الصباح، يصحو على واقع أيامه، ويفحص
في التراب خبره، وفي المساء، في لحظة الغسق الشاحبة، يقطع
الدعوى من جذورها.

— «وفي برقية لوكالة الأنباء الفرنسية»...

كان يأتيه هذا الصوت الواهن من الراديو.

... «على مصنع الشركة الأهلية للصناعات المعدنية».

وكانَ الراديو في منزل بعيد عن منزله، حاول المرسى أن يحدد مكانه، وبعد قليل، بعد إجراء بعض حسابات مشوشة في ذهنه، أدرك أن الصوت المتسلسل إلى حجرة نومه، إنما يأتيه من راديو في مكان البقال.

جمهرة الرجال

«إن هذه الثغرة التي شنتها إسرائيل على المصنع المدنى وتصفته بالرشاشات والتنايم، تعتبر استمراراً خطيراً فى تصعيد إسرائيل لعملياتها الحربية لتشمل كل الأهداف المدنية والمدنيين...»
«من بيان المتحدث الرسمي»

للمساء وقعر الليلة المناسبة من الشهر العربى، هلال صغبر، خط من اللون الرمادى للشبح بحمرة قانية، عند الأفق البعيد، وسط أسماء الناكثة الأشجار، تتمايل مع هبات النسيم ورائحة الدفء، تشبع من البهوت والناس، تقنقر الحوائى، تستلنى وتشر فتاة صغيرة، تحمل مقطعاً ملوناً تجمع فيه، رغم البرد والهواء المشبع برطوبة السماء، روث البهائم المتجمع فى الحارات.

النور أمام عشة تعلب مستطيل الشكل، يقسم الشارع نصفين، وجاة يظهر الناس من الظلام، تتضح ملامحهم فى النور، يفتحون عيونهم، تشع الأحناء «تدق فى مصدر النور» ثم يمشون بنقص لطريقة التي ظهروا بها، يبتلعهم الظلام مرة أخرى، فلا يرى أحد أين ذهبوا، ولو حقق أحد الجالسين فى داخل العشة بعينه، محاولاً أن يتبع الحبا ماء لما استطاع داخل الظلام أن يميز أى شئ.

وفى خارج العشة، فى الحارة الطويلة الملتوية، يختلط الظلام
بلسعات البرد، فيكونان شيئاً واحداً.

إن عشة تعلب هذا المساء مزدحمة بالرجال، ليلة الجمعة، وكل
الرجال يودون أن يسهروا حتى منتصف الليل، يشربون الجوزة،
يصعد الدخان حتى الناقوس، يشعر الرجال بدوار لهذه، تسرح
الفتيات مع الدخان الأزرق الغامق، عندما تسبح طياته بجوار
الكلوب المتوهج، وبعد الكرسي الثالث، يصيب الجسم خمود،
وترتخي الأعصاب وتتفكك عظام الجسم، وتخرج الكلمات بغير ما
إرادة من أحد لينة مسترخية كسولة، ويرفع الرجل يده ثم يحاول أن
يطبق أصابع يده فتصيبه رعشة، تتقارب الأشياء، تتباعد وتهب
نسمة ليلية من جوف مساحات الظلام فتصل إلى الأنوف باردة
طرية.

يجلس الغريب وسط الرجال أسمع الحقيقى زين العابدين، سماه
الناس مرة بالمهاجر وأخرى بالغريب، وهو من أهل القناة هاجر بعد
حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، واستقر مع جماعته - زوجته
ولولاه ولمه الكبيرة - فى الضهرية

عندما يتحدث الغريب بصوته الرفيع ولهجه المميزة، فإن الكل
يدرك أن لحيته هو بالذات وقعاً خاصاً، ومعنى متفرداً. لقد خالطهم
الغريب منذ عامين فى حياتهم، أصبح جزءاً من أهل البلد. كانت له
حياته الخاصة، ذكرياته، ماضيه، بلده الذى هاجر منه إلى بلده.

وفى عشة تعلب، يتناولون كل شئ بالحديث، كل ما يطقو على
سطح الحياة اليومية فى الضهرية، كل الأشياء التى تصالون أن
تخدش رتابة الحياة ولا مبالاتها، والحديث فى عشة تعلب أصبح
عادة محببة لكل الرجال، لدرجة أن كل رجل وهو يعيش حياته
العادية، يسير فى حوارى البلد، أو شارعها الرئيسى، وهو يصلى
فى المسجد أو يعمل فى الحقل، فإن كل ما يشاهده، يختزنه فى
ذهنه، يؤجله لحين لقائه مع أصدقاء الليل فى العشة، كى يحكيه لهم
وفى كل ليلة يتحدثون عن الجعينة الثعالبية، ودور الرى، وأثمان
المواشى فى السوق وقصص الغرام والخسومات، ومواعيد الصلح
بين المقاتلين، وبين الحديث والصمت، تدور الجوزة بينهم صامتة،
لا تعلق على أى شئ ولا تدلى برأيها فى أمر من الأمور، بل هى
المصمت الوحيد فى كل ليلة لكل ما يقال فى العشة.

- إنما أبو زعل ده فبن يا أولاده ..

عند سماعهم السؤال رفع بعضهم يده إلى رأسه، وفكر قليلاً،
وراح يتذكر، يستخرج الصور الضبابية من فاع قلبه للعلم، وتساؤل
هل زار هذه البلدة من قبل، هل له فيها أقارب، ومن الضهرية أناس
رحلوا عنها، تركوها وسافروا إلى البناير، عملوا فى المصانع، وهناك
حلقوا شواربهم، وتعموا ذقونهم، وساءوا شعر الرأس، والغوا
بكتلمات الغزل الضجولة على الفتيات الناعسات عند نواصي
الشوارع، تحت أعمدة النور فى الليل الشتائى البارد، والبناير التى

دخلت حياة الشهيرة كشيرة: كفر الدوار، كفر الزيات، دمنهور،
الأسكندرية، طنطا حيث سيدى أحمد البدوي، دسوق، شى لله يا
سيدى إبراهيم يا دسوقى، هكذا يقول الناس عند سماعهم اسم
دسوق.

— أما أبو زعبل دى فيها السرايا الصفرا.

تذكروا جميعاً، أنهم فى الزمان القديم، بالتحديد فى السنة التى
باعوا فيها قنطار القطن بخمسين جنيهاً، فى هذه السنة أرسلت من
الشهيرة زوجة شيخ البلد التى أصابها ميس، وقالوا أن النفاة نادتها
وخرجت بها، لتربها ابنها البكر الغائب، وذهبت بها فى الليل إلى
شاطئ النيل ثم تركتها على الشاطئ شاماً، وقد كانت تتأهب
للنزول بها إلى قاع البحر، وقالوا إنها تركتها وهربت، لأنها سمعت
رجالاً قائمين على جسر البحر.

— لا دى راحت الخانكة.

— كلامه صحيح، ذا أنا يومئذ سألت سواق العربية التى خدتها.

ولم تطل حيرتهم، إذ قال الغريب

— على العموم أبو زعبل دى، على خط المترو بتاع حيوان.

وسبق على كلامه شاب من أهل البلد سبق أن عاش سنوات فى
مصر أم الدنيا، فترة تجنيده فى الجيش، وعاد بعد ثلاث سنوات من
هناك، وفى يده ساعة وفى جيبه جلابيه نظارة يقسم أنها من
العريش بشمانية جنيهاً مصرية، وفى القلب منه قصة حب قديمة

ويحدث أحياناً وهو فى الحقل بعيداً عن البلد، كما يتحدث أهل
البندر فى مصر والأسكندرية.

— لا پاراجل أنا افتكرت أبو زعبل دى على خط كويرى الميمون.

رانت عليهم فترة صمت وأدرك بعضهم وقد يكون له الحق فى ذلك،
أن مصر التى يسمونها فى الراديو لسبب ما القاهرة شى لا وجود
له بالنسبة لخريطة حياتهم، وأن أبو زعبل هذه، وإن كانت جزءاً من
مصر الغالية، فانهم لا يدركون بشكل قاطع معنى ما حدث، وأنهم
جميعاً يدركون فى هذه اللحظة أن قاسوس حياتهم دخلته كلمة
جديدة، مثل كلمات العائدين من البنادق أو تلاميذ المدراس، أو نداءات
باعة الصحف والمجلات فى الثوبقية وكفر الدوار.

قام أحدهم من مكانه، وقف فى منتصف العشة، رفع يده كأنه
سيخطب فيهم خطبة طويلة، وتصور بعضهم أنه يستعد للذهاب
إلى منزله مبكراً، ولكنه بعد أن وقف وتطلعت لهم عيون الجالسين،
فبدأ لهم طويلاً لحد السماء، أقسم لهم بالطلاق ثلاثة، شافسى
ومالكى وأبو حنيفة، بصوت عال، أن أبو زعبل هذه فيها سجن
كبير، أكبر من سجن المديرية فى دمنهور ألف مرة، وأنه ذهب إليه
لزيرة قريب له هناك كان محكوماً عليه بالسجن، وأنه شاهد
المصنع بنفسه ومما يذكره الآن ولا يمكن أن ينساه، أنه أشعل
سيجارته من أحد العمال، عمال المصنع الذى ضرب اليوم، لعدم
وجود كبيريت معه، وأنه قال للعمال: «تشكر يا أخ» ورفع يده إلى

جبهته، فرد عليه العامل راقعاً يده هو الآخر: «إيها خدمة بالبلدية» قرر كل منهم لنفسه، كل بطريقة الخاصة، أن العالم واسع وكبير وملئ بكافة الأشياء التي لم يعيشونها بعد، غير أن الأمور قد تغيرت، وسرى بين الجميع حماس جديد، عندما قال شاب صغير أن أحمد اسماعيل يعمل في هذا المصنع.

— مصنع الشركة الأهلية للصناعات المعدنية.

— وهو مصنع مدني في منطقة أبو زعبل.

قال الشاب الصغير:

تمت أحنهم: «رينا برحمه» غير أن الجميع أسكتوه:

— «قال الله ولا فالك»

وداح كل منهم يتذكر آخر مرة رآه فيها، وآخر مرة سمع صوته، وآخر مرة زار أحمد اسماعيل البلدة، وأقسم أحدهم بالمصحف الشريف، أن أحمد اسماعيل في آخر مرة زار فيها الضهرية، كان يفكر في بناء مقبرة لعائلته في الضهرية، خوفاً من أن يدفن في بلاد الغربة، وإن أحمد اسماعيل نظر يومها ناحية المقابر، وقال أن من يريد أن يبني عليه بدار النقاء هناك، وإثار بيده ناحية المقابر، عليه بدار الخلود، فكل شيء زائل ولا دائم إلا وجه الله.

دراة مناقشات، تحول التجميع بين مصدق ومكتب، وأقسم أحد الخفراء أن أحمد اسماعيل يعمل في مصنع شبرا الخيمة، وإن شبرا الخيمة تبع زعماء بنتها.

— إنما الضرب كان بطيارة فانتوم.

رينا يهدهم.

وتذكروا أن هناك طائرة شعبر سماء البلد في منتصف الليل، وأخرى عند الفجر، فسرت في أبنائهم قشعريرة وقف لها شعر التروس، وتذكر كل فلاح منهم أنه بمجرد أن تمر طائرة فوق رأسه تطعن الفراغ العذب، يقف مستنأ على رأسه، ويرفع رأسه ناظراً إليها. وتذكروا أيضاً أنه لا يوجد عندهم اقدس من السماء وأنهم دائماً وخاصة في الأوقات العصيبة، يرفعون أكفهم إليها ويهتفون بعيون مغسولة بالأمسى، بكلمات راعشة من القلب. تذكروا هذا، فتعجبوا، لم يتكلم أحد منهم، كانت المسألة صعبة بالنسبة لهم، كيف تصبح السماء، ذلك الفضاء الأزرق الهادئ، مكاناً يلأى منه الموت والجهول، وثأى منه أيضاً الرحمة والعطاء وكل الخيرات، وعندما مجزوا عن الأجابة عن هذا التساؤل، مصصمت شفاههم، واستسلموا، وقال الرجال لأنفسهم، دونما كلمات، بل وباحساس ساذج، مجدول من إياهم الجديدة، وأحلامهم التي يلون التراب، لبرحمنا الله، فإن هذا زمان عصيب.

الليل يتقدم، والغريب يستريح في جلسته، يتحدث بصوت هامس، عن الغارات، يشرح لهم معنى أن تكون هناك غارة، في مكان ما، معني أن تتهدم البيوت، أن يفضح سرها، أن تشعل غرف النوم والجلوس إلى أشياء مستباحة، أن تبدو الجدران الباطنية

للبيوت، بعد الهدم، بكل ما تعلمه من طابع الحياة البيتية، سناجاً لسود على الحيطن، عبارات صغيرة دونها الأطفال بعد ذهابهم إلى المدارس الابتدائية، رسوماً سائجة، معنى أن تفقد المدينة ميرر وجودها، أن يقتل الرجال، يموت الأطفال والنساء والشيوخ في لح البصر، في اقل من ومضة عين، بمجرد أن تعلن صفارة الأتار بدء الغارة، يبدأ منطق جديد، شكل آخر من أشكال الحياة، الجرى، إطفاء النور، الفرز في النعير، اختفاء علاقات الناس ببعضهم البعض، فقدان الأشياء أحجامها الطبيعية، ويحاول كل فرد في نهاية الأمر، أن يتجو بجلده.

تداخلت الأمور، تركت كلمات الغريب في الصدور احساساً سائلاً بالحرث، وفي آخر الليل، تحدثوا عن أمور أخرى، ودارت بهم الكلمات، وكان تعب، خلال هذا الوقت، يدور بينهم بسرعة، وتعلب يعمل بالنهار في أعمال مختلفة، سمكري، يؤجر دراجات لتلاميذ المدارس، يطلو البيوت بألوان مختلفة، ويكتب عليها عبارات من عنده، ويرسم أشكالاً حلوة، ولكنه رغم كل هذه الأعمال، ومهما كان عمله بالنهار، فما أن يأتي الليل، حتى يشعل الكلوب ويجعله إلى عشته ويستعد للسهر، ويقول أهل البلد، أن سهره في العشة، ليس من أجل كسب العيش، بقدر ما هو مزاج خاص، فهو ليس فلاحاً، ولكنه ابن مزاج، وهذا هو سبب مواظبته على السهر في العشة، أن تعلب يعرف أسرار البلد كلها، كل الحكايات الصغيرة، وهو لم

يتزوج ولا يفكر في الزواج، رغم كل ما يقال عنه من حكايات بسبب عدم زواجه.

خرج الغريب من العشة، في الشارع، كان الطبل والسماء والنجوم، رفع عينيته ناحية السماء، أدرك أنه تفصله عن بلده سبعة بلاد وسبعة بحور وسبع سنوات عجاف من السفر والترحال، وهو في الطريق إلى منزله، توقف لشراء عشاء أولاده، وتشتلت له ليامه، مكاتب التهجير، مرثيات المهجرين من المحافظة، وشعر بحنين بلده في أعمائه لبلده، البحر وأكل السمك والأرز المفلفل، دفء المقاهي الليلية، في ليالي الشتاء، المظلمة بخار الشاي وبخاخ الجوزة، صوت النرد والدمينو، وأوراق الكوتشينة مكسب كل يوم، واتفاق كل ما يأتي به البحر يومياً، اللعب في المقهى حتى الثانية صباحاً، البحر والصيد والجنينات والملابس المبتلة ورائحة السمك والشبّاك العالق بها قشر السمك، ثم الحياة في الشهرية بدون عمل، حيث يتساوى الغريب بزوجته، القوم ليلاً في منزل مؤجر لا يشعر الغريب مناخله، بتلك الألفة التي يشعر بها الإنسان في منزله، تلك العلاقة الحفية التي تربط الإنسان بالأشياء التي تكون المنزل، الجدران والأثاث والأرض والسقف، الجلوس في الخصى أمام داره وقد نبلت عيناه من الوسن، في الصباح ينتظر أن يتتصف النهار، وعند الظهر يتلف على قدم الليل، وفي الليل يكون للجوء إلى السرير مبكراً لمرأله خطورة.

البروجي يعزف نوبة وداع

« وقد تم على الفور اخراج جثث الشهداء، ونقل المصابين إلى مستشفيات الخانكة المركزي والمرج وهليوبوليس، حيث أعلنت حالة الطوارئ للأجريت عمليات جراحية عاجلة لاسعاف المصابين. وبعد ذلك تم إخلاء المصنع، والمنطقة المحيطة به خوفاً من القنابل الزمنية التي أسقطت الطائرات الاسرائيلية عند أمتها». « من وقائع ذلك اليوم »

شهر آشور الذي يقول عنه الناس هنا لبعضهم البعض: «بكرة ييجي لك أمشير، يخلى عشمك على الكرم تسير» يغطي برده أطراف المنطقة. عند انتصاف الليل، يدرك هذان، شيخ خفراء البلد، أنه قد وصل إلى منتصف رحلته، نصف مسافة الترحال، سفر كل ليلة، حيث لا أمل في الرجوع، وشاطئ الوصول، حيث الجنين والأشواق والأسى، الأهل والأحباب، يبدو بعيداً، بعيداً.

في الليل، يتلع شيخ الخفراء المسافات الطوال ويطوى في جناياه الأميال، ويسافر على جناح الحزن إلى قبر الحبيب الغالي، العلامة، حجرة صغيرة مدفونة في الأرض، هنا قبر الشهيد، استشهد في معركة، بتاريخ، ناحية، ويعود مسرعاً، على أنغام نوبة الوداع

حمل الغريب طعام أولاده، عاد إلى منزله في آخر البلد، وفي صدره كان الحنين يكيو به إلى بلده، وعلى طرف لسانه انزلقت كلمات رثية، مئة، مئة، أن الديار البعيدة، اشتاقت إلى أهلها، وفي آخر الليل قام تغلب، عد نقوده، تلق مياه الجوزة، لم عد الشاي، أطفاً النيران والكلوب. وكانت حكايات هذه الليلة، الشهداء، مرأهات الرجال على أبي زعبل، الطلحات، سماء الله العالية، كل هذا، كان يعنى بالنسبة إليه، أن ما شرهه زبائن عشته هذه الليلة، أكثر من مشاريب أية ليلة أخرى، وبهذه العلامة فقط، سيظل يذكر هذه الليلة لأيام قادمة، وقبل أن ينهى كل أعماله، عد الحساب الشكك عند زبائنه.

— وادي نومه .

ثم استعد للنوم، وعندما وقف تماماً، ومد ظهره، ووضع يده على سلسلة ظهره في التفتف، شعر بالألام في عظام ظهره، رفع عينيه نحو السماء، فادرك أن الليل، ليل البريف، ليل الشتاء الطويل، ذلك الليل المشبع برائحة البرطوبة وريح اختصار الأرض، ذلك الليل، ينتصف الآن.

البروجي يعزف نوبة وداع

« وقد تم على الفور اخراج جثث الشهداء، ونقل المصابين إلى مستشفيات الخانكة المركزي والخرج وهليوبوليس، حيث أعلنت حالة الطوارئ فأجريت عمليات جراحية عاجلة لاسعاف المصابين، وبعد ذلك تم إخلاء المصنع، والمنطقة المحيطة به خوفاً من القنابل الزمنية التي أسقطت الطائرات الاسرائيلية عدداً منها، من وقائع ذلك اليوم »

شهر أكتوبر الذي يقول عنه الناس هنا لبعضهم البعض: « بكرة ييجي لك أمشير، يخلى عضبك على الكوم نسيير» يغطي برده اطراف المنطقة. عند منتصف الليل، يدرك هذان، شيخ خفراء البلد، انه قد وصل إلى منتصف رحلته، نصف مسافة الترحال، سفر كل ليلة، حيث لا أمل في الرجوع، وشاطئ الوصول، حيث الحثوث والأشواق والأسى، الأهل والأحباب، يهدو بعيداً، بعيداً.

في الليل، يبتلع شيخ الخفراء المسافات الطوال ويطوى في حناياه الأميال، ويسافر على جناح الحزن إلى قبر الحبيب الغالي، العلامة، حجرة صغيرة مدفونة في الأرض، هنا قبر الشهيد، أمتشهد في معركة، بتاريخ، ناحية، ويعود مسرعاً، على أنغام نوبة الوداع

حمل الغريب طعام أولاده، عاد إلى منزله في آخر البلد، وفي صدره كان الحثوث يكويه إلى بلده، وعلى طرف لسانه انزلقت كلمات رتيبة، معلقة، همس، أن النيار البعيدة، اشتاقت إلى أهلها، وفي آخر الليل قام ثعلب، عد نقوده، تلق مياه الجوزة، لم عدة انشأ، لطفاً النيران والكلوب، وكانت حكايات هذه الليلة، الشهداء، مراهنت الرجال على أبي زعبل، الطائرات، سماء الله العالية، كل هذا، كان يعنى بالنسبة إليه، أن ما شويه زبائن عشته هذه الليلة، أكثر من مشاريب أية ليلة أخرى، وبهذه العلامة فقط، سيظل يذكر هذه الليلة لأيام قادمة، وقبل أن ينتهي كل أعماله، عد الحساب الشكك عند زبائنه.

— وادي نومه .

ثم استعد للثوم، وعندما وقف تماماً، ومد ظهره، ووضع يده على سلسلة ظهره في المنتصف، شعر بالألام في عظام ظهره، رفع عينيه نحو السماء، فارتد أن الليل، ليل الريف، ليل الشتاء الطويل، ذلك الليل الشهب برائحة التربة وريح اختصار الأرض، ذلك الليل، منتصف الآن.

وكلمات العزاء، وصورة الأخ الحبيب وذكرياته، وصورته، وأشياء الخاصة.

فى غرفة السلاحك، وهو يشرف على تسليم الخفر المتناثق، أخبره كاتب التليفون بالأمر كله.

- والله ما حرام يا شيخ الخفر، أبو زعبل مرة واحدة، هيه الناس ننبها إيه؟ .

وقال الكاتب كلاماً آخر، لا يذكره شيخ الخفر، عن غارات العمق وأهدافها السياسية، وأنها وسيلة ضغط لا أكثر ولا أقل، وأن هذه هى أول مرة تضرب مناطق فى داخل مصر بهذا الشكل، وأنتا لن تسكت على هذا مهما حدث.

لم يعلق عليه بكلمة واحدة، استراحت الكلمات بينهما، ذهب إلى منزله ثم عاد بعد قليل، كى يمر على الدرك، ويعود ليتناول عشاءه، وهذان يخرج من منزله، يمسح جارات البلد، وشارعها الرئيسى بضوابط قديمة بطيئة، يمس الأرض من تحته مساً رقيقاً، ينبه على خفواته بكلمات، كل ليلة، أن يكونوا يقظون، فلا أحد يعرف ما يحمله الليل لهم.

يعود وهذان إلى منزله، يجتمع الشمل، بعد يوم من العمل فى الحقول، يجلسون حول الطبخية، يأكلون، ينظر وهذان إلى أبنائه، منذ أن مات الحبيب الغالى، وهو أكثر احساساً بأولاده، بجمعة كل منهم، بمعنى أن يعرض، أن يقول فى الليل الطويل أه، معلناً عن الله.

«القاهرة، صابر فى، إنا لم يصل يرد إلى إدارة، التابعة لوزارة الحربية، السيد وهذان عبد السميع عبد الله، الشهيرة - مركز ايتاى البارود، مكتب بريد الشوفيقية - محافظة البحيرة» .

قلنا له، وكان الوقت ساعة الضحى، أن على الباب أناساً غريباء يسألون عنه، خرج وكان يرتدى قميصاً قصيراً على اللحم، حيث كان يستعد للثوم، خرج عارى الرأس، جافى القدمين، ومن عيشه تطل نظرة مستطلعة، دهشة، وعلى الباب كان هناك ضابط، ومعه رجل آخر.

- لا مؤاخنة يا ائتم، .

دخل وهذان إلى منزله بسرعة، كى يرتدى ملابسه، فلا بد وأن الضابط يحتاجه فى عمل رسمى، وفى داخل المنزل حاول أن يرتدى ملابسه بسرعة، غير أنه فوجئ بالضابط يدخل عليه - احنا عايزينك فى موضوع خاص . .

وسط الدار، خلع الضابط كلبه، جلس على الحصيرة بعد أن خلع حذاءه الأسود، وهذان يحلف عليه أن هذا لا يصح، يحضر مفتاحاً يفتح به المندرة، يفتح ثوابذها، يدخلون، يشمون رائحة عفت، رائحة هواء راكد اختلط برائحة الطوب والجدران والأرضية التى لم تكس منذ زمان بعيد.

- أهلاً وسهلاً . .

يجلس الضابط . .

— أزيك يا شيخ وهذان .

تقال كلمات جافة، لا تقرب بين الناس في مثل هذه المواقف، بل إنها تقال لتبديد وحشة الصمت الزاخر الناتج عن لقاء الناس للمرة الأولى.

— والله أحننا جايين بخصوص فؤاد أخوك الصغير.

رمشت عيناه في دهشة ممزوجة بذوع من الخوف، رفع عينيه نحو الضابط واستعجل الشئ من الداخل.

— خير إن شاء الله .

— كله خير يا حاج .

أخبره الضابط بالأمر، ثم وقف، أخرج من جيبه مبلغاً من المال وأخرج خطاباً صغيراً ناعم اللمس، وطلب منه التوقيع على ورقة معه باستلام المبلغ، وأن يوقع مرة أخرى باستلام الخطاب الخاص بأخيه فؤاد، كتب اسمه مرتين بحروف متأكدة، وضع المبلغ في جيبه، وأطبق يده بقوة على الخطاب الصغير.

— البقية في حياتك، شد حيلك .

— حياتك الباقية، تشدق بالله .

خيل إليه أن كلمات الضابط تصل إليه من بعيد، أو من خلال تلفون العمدة، كانت الكلمات خافتة، على الرغم من أن الضابط كان يفتح فمه أمام عينيه على اتساعه بالكامل، ويميز منها كلمات عن مصير وحتمية المعركة، وإن انتصر في هذه المعركة هو الممكن

الوحيد، وإن مصير الغالية في حاجة إلى رجالها، في هذا الوقت بالذات.

— طيب السلامو عليكم .

مد يده لهم، خرج معهم حتى آخر الحارة، وفي آخر الشارع الرئيسي وبهم، وضع على شفتيه ابتسامة مربة، ورأى وهذان في رقبته، ظل يده المرفوعة يتموج على الأرض المبلطة في لهوثة سائلة، أن وهذان يعود الآن إلى منزله، في جيبه إشباع، وفي يده الخطاب وقد تلوثت أوراقه، وجلس في المنذرة.

قالت زوجته، همه كانوا عابزين أيه يا أبو فؤاد؟ .

ما كان فؤاد ابته، بل كان أخاه الصغير، ولكنه كان أحب إليه من أبنائه، وكان فؤاد نفسه لا يناديه إلا به «بابا» فهو لا يعرف له والداً سواه، كانت زوجته تقف على باب المنذرة، وقف وهذان وقد استراح العنق الطائر في نفسه، واستنار، وأخذ لنفسه شكلاً محدداً، خرج من باب المنذرة، وأصبح في وسط ناره، كان بالحارة للواجهة له أطفال صفار تجمعوا بعد خروج الضيوف.

— فؤاد مات .

بعد التحية . - يعنى لكم وزير الحرية، استشهد شقيقكم، في معارك يوم، بتلحية، حديث زوجته، تفرق الأطفال، كل يود أن يحمل الخبر الحزين إلى أهله، «كما أنه ترجوكم الشوجة إلى إدارة، بالعنوان الآتي؛ وذلك لتسوية كافة مستحقاتهم».

وهذان يتناولن طعامه الآن، ابنته تقول له إن مصنع أبو زعبل، قد شرب، وأنه قد استشهد سبعون عاملاً، لم يرد عليه، رفع عينيه ناحية جزء من السماء يبكي من ثقب في وسط النار، غير أنه كان يود أن يسأل ابنته: ألم يكن من الممكن أن يحمل أحد هؤلاء الشهداء رسالة إلى فؤاد، كلمة واحدة، ولكنتهم ذهبوا، استشهدوا، دون أن يودعوا الأهل والأحباب، في سمضة عين، في الصباح، وتركوا الدموع ولوعة الفراق والأحزان، واشترك أولاده الحغار في مناقشة عن إسرائيل والحرب.

في اليوم التالي، بعد العزاء والدموع والأحزان، قرر وهذان أن يذهبا إلى مصر، قد يكون فؤاد هناك، في مكان ما.
— يمكن تكون غلطة في الاسم.

سافر على جناح أمل صغير، سافر وترك الأهل والأحباب في الشهرية، مكسوري القلوب، عاد بعد يومين، وهو لا يود أن يحكي قصته لأحد، وما كان يخيله وهو في طريق عودته من مصر أن يتوه الاسم، فؤاد عبد السميع عبد الله، في زحمة الأسماء، أن ينوب مع أول قطرات المطر الشتائية، أن تنام الجراح في القلوب، أن تتوسد الحنايا، وفي مصر أم الدنيا، يقسم وهذان لنفسه، وليس لأحد سواء، أنه شاهد جنازة فؤاد، وكان أهل مصر كلهم في الجنازة، وكان هناك مندوب عن الرئيس، وهو ليس متأكدا من هذه النقطة، فقد يكون الرئيس بنفسه، سارت الجنازة، جسد الحبيب فوق

الدفن، بحوله علم مصر، والناس في حزن عظيم، الخطوة الجنائزية الرتيبة، الرجال يسيرون بنظام، يقسم وهذان لنفسه في الليل أنه سأل أحد الرجال، وكانوا مثل يوم الحشر، عن صاحب هذه الجنازة، فنظر له الرجل باستغراب شديد، ولامه على أنه لا يعرف صاحب الجنازة:

— دي جنازة الشهيد فؤاد عبد السميع عبد الله يا بلدية.

وفي النهاية عذب البروجي نوبة وداع، يقول وهذان إن جسمه قد أصابته قشعريرة، وأن شعر رأسه قد وقف، عند سماعه نوبة الدواع. هتفوا، «تموت وتميا مصر» ثلاث مرات.

بعد عودته من مصر، قرر أن يدفن فؤاد في قلبه، أن يكلفه برعوش العين، لن يغسله، فالشهداء أطهار، ثم دفنته في حبة القلب. نعب وهذان ذات صباح إلى بناء البلد، أخذه معه إلى الجزيرة، اشترى طوباً أحمر وزملاً، وفي اليوم التالي، ذهب إلى كفر الزيت، واشترى أسمنتاً وجيرا، ثم ذهب إلى المقابر، الناحية القبيلية، حيث بنى مقبرة جديدة، وغرشنا بالصناد، بنائها على مكان مرتفع، وعندما سأله الناس، قال لهم إن هذا هو قبر المرحوم وأنه وإن كان قد دفن في مصر، فإن الملائكة ستحملة ذات ليلة إلى هنا. واقسم لهم أن ذلك سيحدث، وأن فؤاد بنفسه — يرحمه الله — قد أتى إليه في المنام، وطلب منه ذلك، وقال لهم إن الشهداء مثل الأنبياء ولولياء الله الصالحين شاماً.

— عليهم الصلاة والسلام .

ويعد أن طُلا القبر بلونٍ رماديٍّ، وزيته، كتب عليه: «كل من عليها
فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام». هذا قبر الشهيد، ثم ترك
القبر مفتوحاً.

وفي الصباح، كان وهذان يذهبان إلى حجرة التليفون، يشرف
بنفسه على تسليم البنائين، يضعها في السلاحليك، يوزع
النوتبجات على الخفر، يستقبل العمدة، ثم يذهب إلى المقابر، يقف
أمام قبر فؤاد، يرفع يديه، يقرأ الفاتحة بصوت مسموع، ثم يقبل
كفيه، ويمر بهما على وجهه وصدره، وهو يتمتع بآيات من القرآن
الكريم، ثم ينظر داخل المقبرة، ويتراجع إلى وراء بظهره قليلاً، ثم
ينظر داخل المقبرة، ويتحسنى ويعاود النظر، يتأكد أن القبر خال، وإن
الجنة لم تحضر بعد، ويعود إلى الضهرية.

الضمي، سمعت الصباح الموشاة بالندى، شمس الشتاء المبتلة
بقطرات البرد، وهذان يستعد للنوم، وتكون الحكاية قد وضحت في
ذهنه، تخلقت في كلمات محددة، ولكنه لم يقلها لأحد، حتى ولا
لزوجته أو ابنته الصغار، في الليالي، كان يسافر على أنغام نوبة
الوداع، ويعود إلى الضهرية، محملاً على الأيدي التي قدمت له
العزاء.

اسمه فؤاد عبد السميع من الضهرية بحيرة، ولعلكم لا تعرفون
الضهرية، . . سابلكم، على الطريق الزراعي، مصر — أسكندرية

الشهير، بالتحديد عند الكيلو ٩٦، أن كنت ناهياً من مصر إلى
الاسكندرية، في التوفيقية، . . وبعدنا تودع الأسفلت تتركه وراء
ظهرك، تتجه على طريق زراعي مترب، وأوصيك ألا تنتظر
الأتوبيس، فالأتوبيس في هذه الناحية لا يحضر إلا كل ست
ساعات، عليك بالسير على قدميك، وفي الطريق، بعد أن تقرأ
الفاتحة لسيدى أحمد الزكي في كنيسة الضهرية ترتفع من وسط
الحقول مثذنة مسجد ونخلة وعمود تليفون، ثم مهنى الوحدة
المجمعة، وفي الضهرية، في منزل وهذان عبد السميع شيخ الخفراء
في حجرة صغيرة، مغلقة، عشت بها العناكب، ورسا على الأشياء
فيها تراب الزمن، سجد ساعة يد، بطاقة شخصية وقم ايئام
الهارود، أحترق جزء منها، وتقود قليلة، ومندبل أصفر عليه نقاط
من الدم المتجمد، خطابات، حوالات بريدية، . . شيك بمبلغ صغير،
رزمة من الأوراق القديمة، تلك هي أشياء فؤاد عبد السميع، حفظها
أخوه في حجرته.

ثم سارت الحياة وسط موجة من الأحلام الفاسضة والأمانى
المبهمة والمشروعات التي لن تتحقق أبداً، أن كل شيء حتى الأمل،
يفقد نضارته، ويأبى مع مرور الأيام والليالي، سام لأبذ قريب من
الطاس، ويلتصق بجلود الناس.

لحظة القبول، وهذان في حقله، نائم على ظهره، انه يتمتع لن
يصعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقله، عند مدار

الساقية، ويظل من فوقها على المساحات النهائية من الخضرة، ثم يفيض فيها ويغوص إلى ما لا نهاية.

في هذا المساء، دار وهدان في البلد أكثر من مرة، سمع حديث الناس عن شهيد أبي زميل في أكثر من مكان، فلسعته ذكرى صغيرة، تنام في نفسه، تذكر أن فؤاد سافر آخر مرة إلى مصر دون أن يراه، دون أن يسلم عليه، أن يقول له وداعاً، وأن فؤاد لم يعد بعدها إلى الضهرية أبداً، ولا حتى محمولاً على الأعناق، وفي أثناء مروره على الخفر، تحدث معهم في أمور كثيرة، وتبسط معهم في الحديث، وفي هذه الليلة، كان صوت البروجي وهو يعزف نوبة الوداع، يطن في آذنيه، وكانت صورة الحبيب الغالي، تطل عليه من الغيب واضحة.

الضهرية تنام الآن، والرجال في حجرات نومهم الصغيرة يخلعون، يصنعون سفناً بلا اشرعة، سيبحرون بها في الأيام القادمة، وبعد أن يفيض النيل إلى بلاد بعيدة، حيث سيجدون هناك كنوز الملك سليمان، أن وهدان يجلس على مصطبة مستطيلة، يجلس بجانبه أحد الخفراء، يسأله عن رأيه فيما حدث في البلد الليلة، وهدان يقول له، بصوت مستسلم، ملوئ التعق، وكان هواء الشتاء الرطب يهب عليهما من الناحية البحرية، قال وهدان:

— إن الحكومة لابد وأن تفعل شيئاً ما، وإن الحكومة كلها

مجتمعة الآن، في هذه اللحظة في مصر، تدرس الأمور، وإنها لن تسكت على ما حدث بأي حال من الأحوال ثم قال وهدان:

— أن من استشهدوا صباح اليوم، قد ضموا الجنة وقد وجدوا من يفتنهم، ويبكى عليهم.

— ويا عالم احنا حا نحصل لنا إيه؟ .

قال وهدان:

— في صباح يوم الاثنين القادم، يوم عيد الأضحى سيخرج في الصباح، يذهب إلى قبر الحبيب، يشعل البخور، يقرأ القرآن، يدخل القبر، يعيد فرش الحناء، وتسح الدموع الدافئة على جناه القبر، لن يحضر له أو لأولاده أو لزوجته، ملابس جديدة، سيجلس في اللندرة، مع كل أفراد عائلته، كي يتلقى العزاء في فؤاد، فهذا أول عيد بعد استشهاده.

— ليرحمه، وليرحمنا الله.

قال وهدان ولكن لنفسه .

١ الهموم في حبة القلب

«وإنه تبين أن إحدى الطائرات الإسرائيلية ألقت قنابلها خارج الهدف المحدد بسبب حدوث خلل فني...»
«من مقدمة أخبار أذاعة لندن»

ككل يوم، عندما يشيخ النهار، ويدب الهرم والضعف في أوصاله، وتبهت الأشياء ويذوب شكلها في جوف الساء القاتم، تقوم أم للوم، تفك رباط الجاموسة، تذهب بها إلى النوردة، تتركها تشرب كفايتها من المياه الشتوية الباردة، تلم أشباهها، داخل مقطف كبير، بقايا طعامها، لفة صغيرة فيها أوراق هامة، تربط حزمة البرسيم، تضعها على ظهر الجاموسة، تودع الحقل الصغير بنظرة حائرة، ثم تسير على الطريق المبلط، الغامق السواد، في طريقها إلى الضهرية.

وهي في الطريق، راحت ترتب في ذهنها ما يجب أن تقوم به من أعمال في المنزل الصغير الخالي من كل شيء، حتى من صوت تنفس الأميين في رحابة الليل الطويل، وفي كل مساء، وأم للوم في طريق عودتها من الحقل، يدور عقلها في أشياء بسيطة، وما أن تدخل حوارى البلد، وتقترب من جامع سيدى صلاح، حتى تقرا الفاتحة في سرها، وتستعد للانعطاف في أول حارة تقابلها، حيث

منزلها الصغير، حسبت، وهي في الطريق، الأيام والليالي، أدركت أن هذا هو اليوم السادس من الشهر العرس، وبعد قليل سوف يأتى تمر النساء، حيث أحب ابنتها، وحيث انتهت حكاية حبه.
— أوضتكَ جوه زى ما هي يا للوم .

يحضر . . يمضى في الضهرية أياماً تمر بسرعة، تفكر فيما يكله، في غسل ملابسه العسكرية، كيها، وفي يوم السفر، تغلق الدموع من جذورها، وينظر إليها للوم، نظرتة الحانية، وتكون على شفثيه بسمة هادئة، كأنها تقول لها كلمات، إنها يجب أن تبقى ببئر القلب دمعيتين، نقطتين من الدموع الساخنة فمن يدري ما تخبئه الأيام والليالي؟

يوم الخميس، ليلة الجمعة، وأم للوم تدرك كما علمها الإباء والأجداد في الزمان القديم، أن ليلة الجمعة ليلة مبروكة، فيها تضاء الشيوخ بالشموع، تدمع قطرات ساخنة إلى أن يأتى الصباح، وحتى اللقاير، تلك البقعة الثابتة على حدود الضهرية، يقام فيها ذكر الله، ويثنى القرآن وتضاء القبور حتى تثقب أشرطة الضوء الفضية رداء الليل الداكن، يقوم بذلك ملائكة من عند الله سبحانه وتعالى.

وفي ليلة الجمعة من كل أسبوع، تتذكر للوم، شائعة في الخيال، ترحوه أن يحضر، أن يكنظ كل ما يقال عنه، مهما سمعت، فإن للوم هناك، في مكان ما، من مصر الغالية، يتنفس شمعات الهواء التي شر على الضهرية في كل وقت، ويشرب من ماء ذيلها الدسم، ويحيا، وفي الأعماق منه حلم وردى صغير، بينت الحلال، وبأرضه.

ان ما يؤكد لها ذلك ، ان للوم سبق ان اُختفى، مر عليه نصف عام، وكانت تجنّ، غير انه كان هناك هتاف داخلي، صوت يشبه الهمس، يؤكد لها في صمت الليل، ان للوم لم يمض، وانه هناك، وانه سيعود ذات مساء، وبعد ستة اشهر كاملة، عاد للوم، وكان ذلك بعد الحرب الكبيرة، كان يعلق ذراعه اليمنى بشريط ابيض إلى عنقه، وينطق اللفاظ ببطء ظاهر، ولكنه عاد.

وقالت لم للوم، وكل أهالي الضهيرية، اللهم انه عاد..

— يا الحمد لله، حتى لو كان كرم غصم..

مكث للوم شهراً كاملاً، حكى خلاله وهو جالس في حجرته الداخلية، لأمه ولكل من زاره من الأهل والأقارب والأعزاء، كيف عاد من سيناء، قال كلمات يقف لها شعر الراس، وتخفت عند سماعها نقات القلب، ويجف الحلق.

سافر للوم بعد شهر..

قال لأمه انه قد ينزل إلى وحدة أخرى، في مكان لا يعرفه، وانه قد يحضر، يلف بداخله همومه وأحزانه وأشواقه إليها وسؤاله عن الصحة وحال الأرض والذرة والجاموسة، يلف ذلك، يطويه، يضعه بداخل خطاب أُرقي ويرسله إليها.

ان لم للوم تقف الآن بجواره، عند موقف السيارات على الجسر، جسر ترعة ساحل مرقص، وظلال الأشجار الجازورين تتمارج في ليونة على سطح المياه الهائى، والغارب الصغير ينقل الناس إلى

النهاية الأخرى، لم للوم تحدث أبنها، توصيه، تقول كلمات معانة، سبق أن قالتها مرات كثيرة..

— خلى بالك من نفسك يا للوم..

غير انه لم يعد..

لم يعد بعد ذلك أبداً..

لم يات من عنده خطاب أُرقي، لاحص ولا خبر، ومضت أيام الانتظار ثقيلة الوطأة، قاسية وراحت لم للوم تنتظر، في الليل وفي النهار وفي كل الاوقات، وكانت تجلس خلف باب منزلها، وتلصق أنفها بخشب الباب، وقد يحدث أن تسمع صوت خطوات تسير في الحارة، فتحاول أن تتحسس الصوت القادم، وأن تميزه وتتصور انها خطوات ثقيلة، مضبوطة، وانها هي خطوات للوم، وترفع يدها وتقول انها خطواته، وتمضي الاجزاء الصغيرة من الثواني بالقة البطء، وتمر الاقدام بعد منزلها، إلى داخل الحارة، فتدرك في نهاية الأمر، انها ليست اقدام للوم.

«جارى البحث عنه»، مات زوجها من قبل، تلوّقت لأم فراقه، ولوعة فقده، «جارى البحث عنه»، ولكن اختفاء للوم، ابن عمرها، شيء آخر، جارى البحث عنه، وعند التوصل إلى أية معلومات عنه سنوافيك بها على الفور، كانت قد أرسلت عن طريق قريب لها، رسائل مبللة بدموع العين، «جارى البحث عنه، وعنده، وتفضلوا — سيأتكم — بقبول فائق الاحترام».

— البنت دى عامله ايه يا أمه؟ .

وتستريح بيته وبهنتها . فى هدئة الليل . الحكايا . تنسب
الكلمات الصغيرة ، يتحدث للموم بصوت خافت كالأتين :

— البنت دى عامله لى عمل .

تنصت له أمه ، تسمع حكايته ، ويخفق القلب الذى نصب من
كثرة الأحزان ، ويختم للموم حكايته ، فإن كل شى لا بد وان يؤجل
حتى ينتهى تجنيده ، ويسرح ويعود إلى البلد ، يقسم للموم أن هذه
البنت وهى أحلى بنات القهبرية كلها ، عملت له عملاً ، جلبت نجوم
الليل ، ومن حليها الأبيض الحلو ، عملت له عملاً عند الشيخ
مبروك ، ووضعت فى مياه لُققتها فى طريقه ذات صباح ، وإنه قد عبر
هذه المياه ثلاث مرات ، فلكى ينجح العمل ، لابد وأن يمر عليه ثلاث
مرات .

«تحية طيبة وبعد ، لذا يرجى التكرم بالاتجاه إلى مكتب شئون
القائمين ، بالعنوان الآتى ، ومعك ما يثبت علاقتك به ، كى يتم اللازم
نحو صرف مستحقّاتك المالية ، مع التحية » .

— للموم موجود يا أولاد؟ .

— ما نحى بعث لى جواب .

كانت تؤكد ذلك ، لكل الناس ، وكانت تقسم أنه أرسل لها السلام ،
وأوصاها بالاهتمام بصحتها ، خاصة وإن الشتاء على الأبواب ، وإنها
سمعت ذلك من راديو الأسطى إبراهيم التوزى ، وإن ذلك قد حدث
مصافحة أثناء عودتها من الحقل ذات مساء .

الأيام تضى ، لم يعد للموم بعد ، وتختفى صورته ، شيئاً فشيئاً ،
وينوب كل شى ، الحزن والأسى واليأس والأشواق خلال سوقية
الحياة وتفاهتها ، وترجأ كل الأشياء المؤجلة إلى الغد ، وتشخ القلالي
الحبلى ، تشيخ حتى قبل أن يأتيها ألم اللهاش .

قال لها للموم فى آخر اجازة له ، إنه فى الشهر القادم ، ستنتهى
مدة تجنيده ، وسيصرف له بعد ذلك مبلغاً كبيراً ، عشرة جنيهات
 وخمسة وأربعون قرشاً . لذلك ، لا بد من الاستعداد للفرح والمهر ،
ترميم البيت ، طلائه ، شراء نصف فدان أرض ، وقال لها ، إن الأيام
القادمة ستكون أياماً سعيدة ، وأن الله سبحانه وتعالى قد عوض
سبرهم خيراً فى آخر الأمر .

أم للموم تسمع همساً من بعض الشبان ، أنهم يقفون فى الشارع
الرئيسى ، يقولون أن من يمضى عليه ثلاث سنوات وهو غائب
يعتبر شهيداً .

وقفت مكانها ، نظرت إلى الشبان ، ثم مضت فى طريقها ، ولم
تعلق على حديثهم بكلمة واحدة ، وراحت وهى فى الطريق ، تعد
الأيام والليالي ، منذ أن اختفى للموم ، وعندما أعياها العد ، وعجزت
أصابع يديها العشرة أن توصلها إلى نتيجة ما ، أقنعت نفسها أنه لم
يضع على الغائب ، الحبيب عام واحد ، وإن أمامها عامين طويلين
عريضين ، قد تحدث فيهما الأعاجيب .

فى الصباح ، قامت من نومها ، ذهبت إلى منزل حبيبة القلب ، قلب
الموم ، طرقت الباب ، دخلت ، خطبتها له .

- بس لما بيان موضوعة يا أم لموم..

قال وإله الفتاة.

هبت فيه بصوت عال، وقالت أنه موجود في الجبهة، وإنه هو الذي أرسل لها خطاباً بذلك، وعندما طلب منها الخطاب كي يراه، قالت أنه أرسل أحد زملائه كي يخبرها بذلك، وافق الرجل، وأصرت على أن تقرأ الفاتحة، وإن تتلق معاً على كل الأمور.. للمهر، مقدم الصداق، مؤخره، للميعاد، حاول الرجل أن يرجي كل هذه الأمور إلى حين عودة الغائب، غير أنها أصرت على أن يتم كل شيء.

وفي اليوم التالي، ذهبت أم لموم مع أم العروسة إلى كفر الزيات واشترت النحاس ودوات المطبخ والتنجيد، وقالت إن باقى الأشياء سيشتريها هو بنفسه عند حضوره. وقالت أنه أخبرها أنه يرغب في الذهاب هو وخطيبته إلى طنطا لشراء الأشياء الباقية، وعادت، طلبت أن يطلى للمنزل كله، أرسلت في طلب الجوهجي، ألهمت أن ذلك من أجل فرح لموم.

- بس لما يرجع بالسلامة..

ألهمت أن ما عليه إلا أن ينفذ وله ما يطلبه. اتفقا في النهاية على كل شيء.. وسافرا إلى كفر الزيات، اشترى المونة، وطلا للمنزل كله، وزين حجرات النوم برسومات من ليلة الدخلة والعروس والفرح، وكتب على واجهة للمنزل آية قرآنية، ثم أخذ منها باقى الحساب. وأمرسل طيه، مرتب الغائب، عن شهر، والذي سيصرف له في

أول كل شهر، كانت تصرف النقود، تشعبها فوق مائدة الشهر الملقى، وفي كل شهر وفي تتسلم النقود، كانت تدرك أن لموم يبتعد عنها، وكانت تجهد نفسها، لحظة عد النقود في تذكر صورته. في محاولة فهم احساسها عند سماع صوته، وكانت الأشياء تبدو باهتة، موهلة في القدم، وكان القلب يذوب، يشمر، يتحرك في تجويف الصدر فراغاً، لا تدري كيف تملؤه.

في الصباح، كانت تذهب إلى الحقل، تخاطب كل من يقابلها، تقول لكل الناس أن لموم سيعود، كانت تخاف ألا يصدقها الناس. لقد علمتها المرحومة أمها إن الناس أما شامتة، وأما مشاركة. غير أنها في الليل، عندما كانت تنفرد بنفسها، كانت تناجيه، تكلمه، وكان يعقورها احساس بأنه ذهب ولن يعود. وفي آخر الليل كانت تكابد هما صموتا، وكان الأسى يتسلل في صدرها كذوب الرصاص. وفي بعض الأحيان كان ينتشر في نفسها احساس يشبه اليقين بأنه ذهب. ذهب ولن يعود. فكانت تتمنى أن يكون الرأس بحر ماء، وإن تكون العين ينموع نمو. وتجلس هنا، أو على مدار الساقية في الحقل البعيد، وتبكي.

تسوى حجراته، ثلم المصيرة، تستند لها لحائط الحجرة، ترفع البطانية، تعلقها فوق مسمار كبير في الحائط، تضع للخدة على الصحارة، تكتس الحجرة، تذهب إلى الحقل، وتقسم أم لموم أنها ما فعلت في إياه هذا الواجب في يوم من الأيام، وإن الحجرة في كل

صباح، كانت تبدو نظيفة مرتبة، كأن صاحبها كان ينام فيها ليلة
الأمس. إن أم للوم تترك، أنه مهما بعد عنها، مهما حدث له فإنه هنا،
رائحة عرقه، صوت تنفسه البطيء في ليالي الشتاء، كلماته عن
حبيبة القلب، حبه لها، لقاءه معها.

يا أمي، يا أم للوم، للوم غاب. . غاب تماماً، ومصر الغالية،
حضر إليها الغزاة من البلاد الباردة، من الشمال ومن الشرق ومن
الغرب. وكان النيل الذي يرتقى بجوار بلدتنا، يرقب الدنيا بأحدى
مقلتيه ويبكى بالقلعة الأخرى. . يبكى مياهاً غير صالحة للشرى أو
الشرب، مياهاً مالحة، للوم تاه منذ ألوف السنين. . تاه قبل بناء
الأهرام، وقبل حفر قناة السويس، وهو الآن يكمل دورة البحث
والسفر والترحال في مصر الغالية. . السفر بلا نقطة ابتداء، وبلا
أمل في الوصول إلى مكان على الأرض، للوم غائب، وفي مصر أم
الدنيا، قالوا لنا بالحرف الواحد، وبصوت منكسر متطفر، «جارى
البحث عنه».

قالت جارتها، أنها سمعت وهى تمشي لألماء لحظة العصارى، الناس
يقولون أن اليهود خربوا بلدة اسمها أبو زعبل، وقتلوا مائة شخص
من أهلها، وإن زوجها لم يعد حتى الآن، كى تعرف منه حقيقة ما
حدث، فهو يعلم أكثر منها، وإن الناس في البلد حزناً بسبب ما
حدث، وأنه ما دام أصبح بيننا وبين اليهود دم وقتلى فإن المسألة لا

يمكن أن تنتهى بخير أبداً، وإن الأيام القادمة تعمل في رحمها ويلات
وأوقات عصبية ستشهدها مصر.

قالت جارتها أنها رأت في المنام ليلة الأمس، أن نهر النيل قد
فاض، وإن الفيضان قد زاد عن حده. . حتى أغرق البيوت وطمس
معالم الأشياء، وتقسّم أنها شاهدت فيضان النيل يقطع الأشجار من
جذورها، وإن البلد كلها غرقت، وأنها في الصباح، حكّت رؤياها
لزوجها فزجرها.

— قال الله ولا فاك. .

وعندما استوضحته سبب زجرها، ومعنى الحلم في ساعة صفاء
قال لها:

— إن هناك أمرين لا يعنى أى منهما خيراً في الأحلام وأنهما
يكونان دليل شر عظيم، وهما النار والفيضان،
ثم لم يزد على تلك كلمة واحدة.

قالت أم للوم:

— يا كبد أمهاتهم عليهم. .

وفي ليالي أمشير، لا يطير النكروان، فغناؤه في رعاية الليل قد
يحمل إلى النفوس أملاً ناعماً بأن الأحباب الغائبين قد اقتربوا منها. .
وإن الحبيب الغائب قد يعود يوماً ما إلى الضهرية. . تبدو الضهرية
لعيش أم للوم، في عتمة الليل وقد أسكرها الحزن،
حضر إليها هذا المساء من أضربها أن أبناها للوم هناك، عند

الجسر وأنه يقف بهي المطلعة، حلو التقاطيع، وكانت رائحة روث البهائم تملأ الحارة، وتزحم رائحة الهواء، لم تتحرك، لم تسلكه هوه فين؟ - رفعت إليه عينيها اللتين بلا رموش ولوت بوزها ونظرت إلى الأرض.

- لا، - أبني مش جاي النهاردة..

وقالت

- أنت فاكري مش حا أعرف هوه جاي أمي؟..

قالت الكلمات بهبط، وكانت نقاط الدمع الساخنة تقف بين مقاطع الكلمات، تترك في النفس احساساً موجعاً بالفقد، وراح الشاب يقسم لها أن ملوم في الطريق إلى البيت الآن، وأنه سافحه وسأله عن رجال البلد، ثم وقف على الجسر مع الشبان، غير أن أم ملوم هبت.. وقفت في مواجهته.. - لقسمت له بكل الايمان وبصوت متآكل الحروف، أن ملوم لن يأتي إلى الشهرية هذا للمساء. وفي صباح اليوم التالي..

■

نحن الموقعين على هذا أبنائه

« من أرادها بسوء.. قصمه الله... »

« كعب الاحبار »

وقت الأسيل، أشعة الشمس الطويلة اللينة، ظلال الأحياء التي اكتسبت أشكالاً غير أشكالها الأصلية، الذكريات الرقيقة التي تراقبها، فتحي يجلس خلف نافذته، التي تطل على الناحية البحرية، تستريح نظراته في خضرة الحقول، أمامه كتاب مفتوح تسرح نظراته على مسلمات لا نهائية من الخضرة، وعلى البعد، تلتقي الخضرة بزرقة السماء البانكة في نقطة بعيدة.

- أيتها المواطنين.. أدلى متحدث باسم وزارة الداخلية بالبيان التالي:-

يسمع فتحي، بمد يده، يغلظ الراديو، تعود نظراته إلى صفحة الكتاب، غير أنه لا يقرأ شيئاً، سيعود شهيداً، يقوم من مكانه، يدور في حجرته، يتأذى لثقتة الصغيرة، يطلب منها أشياء لم يكن يحتاجها بالذرة، تتوه نظراته، تصعد نحو الشهرية، يغسل وجهه، يرتدى ملاهسه، جلباب رمانى، تحت صدرى شامى أبهى، يضع

كتابه على منقصة تتوسط حجرة نومه، يتأهب للنزول إلى البلد،
يجلس قليلاً، مائلاً قدميه على آخرهما، ويفكر، على الرغم من أنه لم
يكن هناك موضوع محدد يشغل تفكيره في هذه الظروف، إلا أنه
يحب بشئ مبهم في داخله، يعود إلى ما سمعه، يتذكر الكلمات،
يحاول أن يستشف معنى محدداً له؛ لقد قامت مجموعة من طائرات
العدو صباح اليوم، ورغم أنه يدرك أشياء كثيرة من مجريات الأمور،
إلا أن بعده، عزلته، نفية كما يقول هو من نفسه أحياناً، يجعله
يشعر في أوقات كثيرة، بأنه عاجز عن أن يفعل أى شئ، وفي كل
يوم يسمع، يدرك، يحاول أن يفهم، يتكلم لدرجة أن النموع تسخ في
أعماله ويسمع صوت تساقطها حيناً، ثم لا شئ أكثر من هذا،
وقديماً، منذ ثلاث سنوات، عندما سمع من أحد الشبان الصغار،
وكانوا قد جمعوا لسماع إحدى نشرات الأخبار ليلاً، وكان الظلام
ممتداً كاللثاه، صوت الراديو هزيل لا يصله بانتظام، يغطي عليه
صوت شاب يقول:

— لقد عبرت قواتنا إلى الضفة الشرقية لقناة السويس.

شعر فتحي بأنه مخصص، بأنه ليس رجلاً، في الظلام سال
نفسه، ماذا يمكن أن يفعل؟ وبدأ له أن أى شئ يقوم به، في هذا
المكان النائي، لا قيمة له، إنه لا يملك إلا أن يتكلم، يسمع، تدور الأمور
في ذهنه، يحاول أن يرتبها، ثم في نهاية الأمر، يتأهب إحساساً أملياً
كاذب، بأنه يتكلم ولا شئ أكثر من هذا، وفي صباح اليوم التالي،

السام واليأس ولا جدوى كل شئ، وإحساس ينم تحت الأضراس
كمذاق حبات الملح الذائبة.

بعد قليل سيقيم، سينزل إلى البلد، سيلتقي بالصحاب،
«السعدت مساء»، يدخنون، يشربون الشاي، يقولون حكايات كل
ليلة، تشتعل الكلمات من بعضها البعض، يتوهج الحديث، قصص
تنتقلها الشهيرة، تجرها الحياة جراً بطيئاً.

— هل سمعتم آخر الأنباء؟ .

يقولون كل ما يعرفونه .

— مين عارف آخر نكتة؟ .

وثيف الضحكات على الشفاء قبل أن تولد، يبتسمون، تلتصق في
عيونهم بسمات حزينة، غير أنهم في النهاية يقتربون على وعد أن
يلتقوا مرة أخرى في نفس المكان، وهو منزل صديق لهم، مساء
الغد نفس للوعد، يبذلون وحشة الليالي القادمة.

وقت الغروب، تلك اللحظة اللينة في كل شئ، الظلال والأصوات
وإشكال الأشياء، يقف فتحي، يحل على الحقول، الرجال في
حقولهم، يبذلون البذور في أرض صماء عارية، أرض أصابها البوار،
بلا أمل في مطر قريب، ورجاء في حدوث معجزة ما طلباً للخصب
والنماء، في كل يوم، ساعة الأصيل، وفتحي يشرب الشاي، قبل أن
ينزل إلى البلد، يعاهد نفسه على مناقشة كافة الأمور مع أسدقاءه
الليل، ويقسم لنفسه أنه سيقول كل شئ، وسيلتصق لسانه
بسقف الحلق، إن لم نقل كل ما في الصدور.

يحس فتحي، هذا المساء، أن جو هذا البلد ثقيل، وأن ظلام الليلة القادمة سيأتي، يحتوى كل الأشياء بداخله، وسيرين على الشهرية صمت أبدي، وعندما يأتي النهار، تتساقط نقاط الضوء الفضية على البلد كي توظف الناس والأشجار والبيوت ومثانة الجامع، سيجد أن كل شيء، قد ضاع في جوف الليل اللامضي، ولا يبقى في النهاية سوى الذكريات والحنين للأهل والأحباب، ذلك ما يتبقى عادة من رمان الذكريات.



أمام وكان الترتي الكبير في الشارع الرئيسي، وعلى ضوء كلويه الباهت، وقف جمع التلاميذ، بعضهم في مدرسة أنصاري سمك الاعنانية، وبعضهم الآخر في الصفوف النهائية بمدرستي الوحدة للمجتمعة ومدرسة عسرا عبد الكريم الابتدائيتين، ومنهم بعض التلاميذ الكبار الذين يكملون تعليمهم في البنابر، أيتاي التارود، ومنهم، وهؤلاء لا يحضرون إلى الشهرية، إلا في نهاية كل أسبوع، خميس وجمعة فقط، ويهدو عليهم لسطراب وخجل، يسلمون على من يقابلهم من أهالي الشهرية، فهذا هو رحيلهم اليك، في سفر الترحال عن الشهرية، الحبيبة إلى نفوسهم، أن التلاميذ يلقون وفي أيديهم كتب الجغرافيا، يجلسون على المصطبة، يقتربون من بعضهم حتى أصبحوا في دائرة ضوئية

صائرة من الذكان، بل أحدهم أصابع يده في فمه، وأبتدا في تصفح الكتاب، واستمر، والعيون سلاحه، والأصابع الصغيرة تشير هنا هناك، والصغار من حوله. كل واحد منهم يحاول أن يتذكر معلومات عن جغرافية مصر العظيمة، حتى عشروا الخيراً على خريطة، شكل رقم (٣٨) الصفحة رقم (٥٨) المناطق الصناعية في بلتا نهر النيل، وقرارا جميعاً، وفي وقت واحد، أبو زعيل، الخلقة، المعادي، حلوان، وعلى مقربة منها، قلعة المعز لدين الله الفاطمي، ترقب كل شيء، بعون مستطيلة باهتة للقل خالية من الدموع من كثرة ما شاهدت في سالف العصر والأوان.

انصرف التلاميذ عن كتاب الجغرافيا، وعن الخريطة التي تراهوا عليها، وتعبوا حتى عشروا عليها، وبدأ كل منهم في مناقشات، وراح القادمون من البنابر يقصون حكايات عن ضرب مصنع أبو زعيل، قصص صغيرة لم تذع ولم تنشر، غير أن كلا منهم قد عرفها بطريق ما، ورفض أن يذكر المصدر الذي عرف منه هذه الأخبار، وشرح لهم أحد الصغار أن هذه الحرب واردة في القرآن في سورة البر، مانيش فاطر، وقال لهم، بعد أن أقسم بالله العظيم، أن نبوءة القرآن، أنهم سيقتضرون علينا مرة، ومرة وعرة، وبعد ذلك - تتحول الأمور، هكذا يقول القرآن، سنتنصر عليهم وإن يقوم لهم بعد ذلك وجود، سيقول الحجر، يا مسلم ورائي يهودي فاقته، وقال آخر، أنه سمع في المدينة رجالاً يتكلمون وكان أحدهم يقول: إن شهر

فبراير سنة ١٩٧٠ سيظل يذكر، على أن مصر لم تر مثله من قبل، ولا حتى في أيام الحرب الكبيرة.

علينا جميعاً أن نقرر هذا الصمت، فتحى يجلس بين رفقة السهر، تناولوا الموضوع من كل جوانبه، دارت عليهم أكوام الشاي أكثر من مرة، واحضر صاحب المنزل راينو صغيراً وضموه في منتصفهم، ادواروا مؤشره ناحية اليمين واليسار، سمعوا كل محطات العالم، الأنباء، التعليقات، برنامج في محطة بعيدة عن أخبار العالم العربي، احثد بعضهم في الحديث، أدان موقف الحكومة، رد عليه آخر بأن الموضوع ليس حماساً شخصياً، وإن هناك اعتبارات أخرى لا يعرفونها حيث يجلسون هذه الجلسة الريحية، يشربون الشاي ويشربون.

- اعتبارات ايه... ذا كلام قاضي.

قال له الآخر، إننا لسنا بمفكرنا في هذا العالم، وتحدث عن موازين القوى وميزان الرعب والحرب النووية القائمة، حيث لا غلب ولا مغلوب وإنما الدمار للجميع، وقف أحدهم، وهو الذي يؤيد الحكومة، وتناول وضع الاتحاد السوفيتي بالحديث.

- إنما ايه رايك يا أستاذ؟.

- هيه... راينى..

- مالك الليلة؟.

انتهى فتحى إليهم، أحس بكلماتهم كأنها أصوات ليلية مكتومة، تصل إليه من بعيد، رُحفت في صدره مقاطع الكلمات، انتشرت مثل الأبنين المودع، رانت على الجميع فترة صمت، الكلمات ثقيلة بين شفتيه، وفى لى زعل، سبعون شهيداً والقاهرة مظلمة الآن تماماً وربما يتردد في حارات القاهرة الضيقة في الأحياء الشعبية، نداء بالغ للراحة: طفوا النور، طفوا النور... .

- والله مانا عارف أقول ايه يا جماعة؟.

أكمل أحدهم في صوت واضح المنبرات، إن الرئيس رجل صعيدى، دماغه ناشفة، وإنه لن يترك الكلاب يدمسون البلد، وإن مصر كلها لن تسكت على ما حدث صباح اليوم.

قال: مهما تكلمتم عن العالم من حولنا، فمن أن نسكت، وقال إننا لابد أن نسمع من أذاعة صوت العرب، باكراً، بعد قرآن الصباح، ما يؤكد ذلك، وقال أيضاً، أن عنده يقينا تالياً بأن المسألة لا يمكن أن تقف عند هذا الحد... وشاخت الكلمات، دب فيها العجز والهرم، وأصبحت تخرج من الأفواه كسولة مسترخية، واستطالت مساحات الصمت، وانشغل بعضهم بحل الكلمات المتقاطعة، والبعض الآخر في قراءة أخبار أهل القاهرة.

عنده البقال منهمك في عمله اليومي، أمامه دفتر الشكك، يدون فيه ما فاتته تدوينه، دفتر متسخ مثقل ببقع الزيت والجاز، يطلب منه أحد الزبائن طلباً ما، يضع القلم الكوبي خلف لثته، يعطى الزبون

طلبه، ويهود إلى دفترة، مقرباً عينيه من الدفترة، يقف الرجال حول البنك، يتحدثون في أمور يومهم، وعيده يشاركهم في الحديث بكلمة صوت لا يعنى أى شئ، الرجال يقفون، في مثل هذا الوقت، وقفة تسترخي فيها أعضاء الجسم، يستريحون من عناء اليوم، ويذكر كل منهم نفسه بأن في الحياة أشياء حسنة، ينصت الرجال، يستمعون إلى ما يقال، يكون كل منهم لنفسه رايًا محددًا، وعند عودته إلى منزله، سيقوله لزوجته، وهو يذبح ملابس، ويعلقها على الحماة في حجرة نومه، يقوله على أنه رايه الشخصي ولا يمكن أن يناقشه فيه أحد، ثم يقرن حديثه لزوجته، بحكمه على الأمر كله.

— أنا والله كان رايي كنا من زمان، انما مين يسمع ؟ .

قال أحد الواقفين؛

— ما كنا نصبر على الجار السوء . يا يرحل . يأتيجي له داهية .
دهش الجميع، دقنوا كلماتهم التي كانت تهبل شفاهم في قلوبهم، وحومت فوقهم لحظة صمت وعادوا فظفروا إلى أنفسهم، وتصور كل منهم بطريقته الخاصة، أن هذا الرجل ليس منهم، ولكنهم تذكروا أنه فلان، ابن فلان الفلاني، وأن زوجته من عائلة معروفة في البلد، غير أن هذا الكلام لا يمكن أن يقال في مثل هذه الظروف، وبدأت الكلمات خجولة، وتكاثفت، وكادوا يختلقون، لولا أن شرح أحدهم لصاحب هذه الكلمات، أن هذا المثل القديم، قد يكون

مصححاً أن كان هذا الجار منا، «يعنى مصرياً» أما أن يكون يهودياً، فاما نحن وأما هم، ولا يوجد حل ثالث للمسألة، وقال لهم أن الرجال في مصر، وخاصة في الريف، يولدون ويولد معهم قدر من الصلابة والعناد، وأن هذا العناد يظل معهم طيلة العمر، كقدرهم تماماً.

فتحى سالم في طريق عودته إلى منزله، وفي هذا الطريق يكون العثين وحزن آخر الليل، والعودة من رحلة كل يوم، فتحى يسير متمهلاً، واضعاً يديه في جيبه، مخترباً بنظراته الظلام المتراكم أمامه، ذهب إلى البلد، سهر، شرب الشاي، سمع أصداق كل ليلة يتحدثون، كلمات مقتضبة غريبة، قام، سلم عليهم، تواعدوا على اللقاء في مساء الغد، ابستموا لحظة الفراق، لبعضهم البعض، أخيراً وجد نفسه بمفرده وسط الليل الشتوي البارد، وأدرك، عندما أصبح بمفرده، أن في أعماقه شيئاً ما، له ثقل الحديد وبرودة الثلج، وكان يتساءل: ما العمل؟ وكان الرد الوحيد أنه يكفيه أنه منفى هنا، يكابد مرارة النفي كل لحظة من العمر.

« جزء من تفكير السيد فتحى سالم في هذه الليلة عندما أصبح بمفرده وأرجأ تدوينه إلى الغد »

في روح كل فلاح في الضهرية وفي ريف مصر كلها، بئر صغيرة، بالتحديد في قلبه، وقد تذبل، علوها صناً قديم، غير أنها لا صوت أبداً، بل تعيش في روحه، وتظل مختبئة وسط الظلام، قد تكون هذه البئر حبه لأهله وأولاده الصغار، بلده، عيدان النباتات

الخ. اه الخامية في المقول. مساحات الظل للتاكلة الأطراف، على الجسر، وقت الظهيرة، مياه النيل الدسمة، هواء بلد الطرى، حبه لجر مصر، وهو يدرك هذا بون شرح أو تفسير، ثم ارتفع عدد الضحايا في النساء إلى سبعين شهيداً. . جال بخاطره احساس محمد عن العدل، انه يريد الانصاف وهو على ظهر هذه الأرض، انهما لا قيمة لهما، ان اثنا في زمان أو مكان ناه عنه. لابد منهما الآن، وان استشهد هو أو غيره، فلا بد وأن ينهض من قبره، يعود إلى الحياة، كي يرى الانصاف بنفسه على أرض مصر، وقد يتحول بعد الموت إلى تراب، زبعا سماء، ولا يبقى منه سوى أشياء لا تثير في النفوس سوى الذكريات، أما الانصاف والنصر، فقد يكونا لإنسان آخر مصري غيره، يأتي من رحم الغيب، غير انه يجب أن ينتزع الانصاف ولا يجلس هنا، في ركن من قرية صغيرة، في انتظار أن يهبه إياه إنسان آخر.

دخل منزله، أشعل مصباحه الصغير في حجرته وخلع ملابسه، تناول العشاء، أخذ يدور في حجرته، ارتدى بيجامة زرقاء، أعاد تنظيم الحجرة، جمع كتبه، أوراقه، أقلامه، وضعها في حقيبة صغيرة، اقترب من النافذة التي تطل على الناحية البحرية، فتحتها، شم هواء الحقول المشبع برائحة الزهور الربيعية، كان يشعر برغبة في القناء، في أن يقول أي شيء حتى لنفسه.

« قرار شبه نهائي، اتخذه السيد فتحي سالم غير أنه أرجأ تنفيذه حتى صباح الغد »

في الصباح، قبل أن يذهب إلى المدرسة، سيذهب إلى مكتب البريد، يسلم، يسأل عن الحال، ويأخذ من وكيل المكتب نموذج تلغراف مطبوع، يخرج قلمه الحبر الأثيق من جيبه، ويمسك ويكيل المكتب في الجلوس، وبعد أن يقول له وكيل المكتب، اتفضل بالاستاذ، يجلس، يعتمر ذهنه، يكتب بخط يده اليمنى تلغرافاً إلى مصر الغالية، يقول فيه، بكل بساطة، « يا مصر. . يا أرضتنا العذراء. . فكى ضفائر حزنك السوداء، أجديها، أرسلها إلى. . عبر الليل كي أتى إليك سائراً عليها، ثم ارتدى طرحة في لون الليل، ليل ريغنا النسم حتى تذهب للغمة، ويتجلى الكرب. . فهذا هو قدرك يا أحلى صبايا العشر. . »

الحرب في مصر

— يا سادة يا كرام، ما يحلى الكلام، إلا بذكر النبي،
عليه الصلاة والسلام.

— صلى الله عليه وسلم.

قال الروائى:

«قلنا فى الحماسة:

— الشجاعة هى مشاء العزيمة، والجبن هو التخاذل،
وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقاً، وعندما
يكون الإنسان ملغى العزيمة فى وجه الأسود، فإنه
يأخذ فى الهجوم، أما إذا تخاذل، فإنه يولى مدبراً.
وقلنا فى الفخر:

— لقد جعلنا تخوم بلادنا، أبعد مما وصل إليه الأعداء،
لقد زدنا فى مساحة ما ورثناه، نهاجم من يهاجمنا
حسب ما تقتضيه الأحوال. والرجل الذى يركن إلى
الدعة بعد الهجوم عليه يقوى قلب العدو.
نحن طموحون لإحراز النصر، وفى البلاد التى
غزناها، أسرتنا نساءهم، وشققنا رعاياهم، وذبحنا
ثيرانهم، وحصدنا زرعهم.

وقلنا فى الحكم والأمثال:

— الأسود، أسد وإن كُلت مفاليه.

* * *

الوصلة الأولى:

قال الراوى:

— ما أسعب أن تحكى قصة عن واقعة ما نزل نعيشها، الحدث طازج، والحكاية معلقة فى مائى العمود، مكتوبة على الجباه، والخرج قائم سواء تكلمنا، أم رشفنا من كوب الصمت للكسور، ما حدث قد حدث، مرت عليه أيام وأسابيع وشهور. وأصبح قبوله جزءاً ثابتاً من طبيعة كل رجل منا. الأمر كله صعب، فى صعوبة الموت نفسه. حاولنا أن نتكلم، سبحنا فى بحر الكلمات. وعامت الألفاظ فى مياه اللغة، أدركنا البصر فى كل الاتجاهات، سجلنا اكتشافاتنا المدهشة، خدقنا بعضنا فى وجوه البعض، بدا لنا الأمر مخيفاً لدرجة الرعب وعدم التصديق، ما حدث كلنا نعرفه، عشناه، تنفسناه مع نسمات الهواء العفراء بالهوان، رأيناه فى انطفاء شمس الصباح الخريفية، قرأناه على وجوه طيور السماء التى تحط على شواطئ بحارنا الشمالية، سمعناه فى وشوشات النخيل، وشوش أوراق الشجر، اكتشفنا أن إيماننا مثقلة بالجراح، وأن دلتنا نهر النيل، امرأة تفتح فخذها لكل عابر سبيل.

قال أحدهم:

— كان خذلاناً من الله.

وقال آخر:

— لقد نفذ القضاء والقدر.

وقفنا، وكان الليل قد شاخت ملامحة، وكان سوانه قد استقر فى النفوس. قلنا، ما زالت الألام تبتدى لنا العجائب. قررنا أن هذه الأمور كلها غير صالحة. إن الأيام تمر، وبمرورها تنمدل الجراح، وتجب قطرات الدمع على الخدود، العالم بحر، كله بحر، وجسر الخلاص نسقت جذوره، أضفى حطاماً، قطع خشب متناثرة. والوج لا يحمل سوى أخبار حزينة، وطار طائر الشوق، ومن الجو سمعنا مرثيته. ضاعمت الأرض، ومات التشباب، وأصبح الهوان مباحاً، والحال على أسوأ ما يكون. استقرت الكلمات تحت قشرة الوعى الرقيقة. استدارت المعانى فى الأنهان. وفى آخر الليل، قال الراوى:

— كان ذلك، مما جرت به الأقدار، والحكم لله الواحد القهار.

قال الراوى:

— لا أطلب سوى الصدق فيما سأحكىه هذه الليلة. الحكاية، ككل الحكايات، لا بد وأن يكون لها بداية ووسط ونهاية، ولحظة حاسمة تصل فيها الأحداث إلى القروة، ثم تأتى النهاية. والحكاية لها بطل، يجسد الشوق والحنين والفعل، وأشخاص تدور حول البطل. كما وأن الحكاية، تمتد خلال زمان معين وعلى أرض محددة، غير أن حكايتنا، حدثت ليلة، مرة واحدة، وفى أكثر من مكان. ومن الصعب تحديد زمان محدد حدث خلاله.

مصرى قمر الدولة الضهراوى، فى الضهرية.

ترك وحدته هارباً، وحضر إلى قريته.

هذه هي كل أحداث حكايتنا الليلة. إنها حدث وليست حكاية، غير أنه حدث له أهميته التي تفوق كل ما حكيناه من قبل، إنها ليست حكاية عشق في سالف العصر والأوان، وليست درساً عن كيد النسوان في عصرنا الحاضر، إنها شيء آخر، فيه الغربة والصنين والثوق والهمس والجنون، فيها ما حدث، وما يحدث، وما قد تلده لنا الأيام الحولى بكل عجيب وغريب.

ذات مساء حضر مصرى إلى الضهرة.

لم يكن في حشوره ما يوحي بشيء غريب، نزل من السيارة الأجرة على الجسر، سلم، رمى نفسه في الأحضان التي رحبت به «وحشتوني والله». قبل أهل بلده، مسح غيبته في عيونهم، وغسل لهم والانتظار والثرقب في نظرات أهل بلده، في المنزل قبل يدايه وأمه، سلم على أخته الصغار، شم رائحة التراب في الحجرة الصغيرة، وعبق أنفه برائحة الخشب المسوس، سأل عن الصحة والحال، قالوا له أسماء من ماتوا، فطلب لهم الرحمة من رب العباد، ومن لتمعهم المرض الأخير في بيوتهم، فتمنى لهم الشفاء أو الموت، سألوه، ألم بأن أوان تسريحه من العسكرية بعد الغربة كأيوة لاذعة، الغربة تذكر بأن السعادات الصغيرة، يمكن أن تهدم في أي لحظة خاطفة، والشوق زاد عن حده، والأيام استطالت، ولا من أمل، قال لهم، إن الأوان لم يأن بعد، سألهم عن الأرض والزرع والماشية، اشتكوا سوء الحال، قال في نفسه، إن الداخل يساوى الخارج - سوء

الحال موزع بالعدل، وهمس، فليكن لنا في العدل كل الأمل والعزاء، وبعد أن لف الكلام ودار، وبدأ الليل يختر من آخره، وبدأ جو وسط الدار، مثقلاً برائحة اختصار أرض الزرية ببول الماشية، تنضح أبوه:

— يا مرحب يا مصرى، والأجازه كام يوم إن شاء الله.

— لا دى مش إجازة.

— أمان إيه؟

ببساطة وبدون اللجوء إلى ألفاظ نبيلة كبيرة الحجم وبإحساس طازج، قال لهم، إنه هرب من وحدته. إن الجميع يبدون الآن، كأنهم صور مرسومة على حائط النقاعة، عيون تدور في محاجر بلا رموش. إن الصمت يرحم للمسافات، وثمة تساؤلات في الفراغات الصغيرة، وثمة كلمات جفت على الألسنة والشفاه وبقيت معاني في النفوس، قال أبوه:

— إنما ليه كنا يا مصرى.

وقف مصرى، بدأ طويلاً لحد السقف الأسود، أثار عينيه في الجالسين، وتقطعت خيوط النظرات بينهم، فأحس كل منهم، أنه ضعيف لحد الموت:

— الأمر لله، من قبل، ومن بعد.

الحكاية طويلة.

خرج مصرى من الحجرة، وكان والده يطحن الألفاظ تحت أسنانه، قبل النطق بها.

مصرى قمر الدولة : لم يكن هناك من حل سوى

العودة

العمدة : لا بد من عونته ، طوعاً أو

كرهاية إلى وحدته، ليكون

عبءاً من يعتبر.

قمر الدولة الشهراوى : كثير ما أعرفه عن ابنى.

رجل من أهل البلد : قليل ما نعرفه نحن أهل

البلد، عن حكاية مصرى.

إمام المسجد : هنا زمن العجائب السبع.

نشرة : مطلوب البحث عن :

الاسم : مصرى قمر الدولة

الشهراوى

العنوان : الشهرية، مركز أيتاى

البارود - بحيرة.

تاريخ الهروب :

الصفات الجسمية : اللون : السم.

الطول : ١٢٠ سنتيمتر

لون العينين : عسلىة.

لون الشعر : بنى غامق.

حكاية :

سمعت أنه حدث في قرية نكلا العنكب، مركز أيتاى البارود، منذ
عشرين عاماً أو يزيد، أن سافر شاب صغير إلى وحدته، كانت الأيام
أيام حرب، ودعوه ذات مساء، لوحث الأيادى في القضاء المعتم.
وامتلأت الصدور بعواطف الحنين واللووعة والحزن. غير أنه ذهب
ولم يعد. فى اليوم المحدد لإجازته، لم يعد، فى اليوم الثانى، تسأل
أهله عن مصيره. فى اليوم الثالث، ذهب شقيقه الأصغر، إلى وكيل
مكتب البريد. سأل عن خطاب باسم والده، سمع وكيل المكتب،
مقالة الطفل الحزين، راجع الخطابات أمامه. وقال له: لا يا ابنى ما
فوش. وفى اليوم الرابع، ذهب طفل صغير، بين يديه خطاب مكتوب
على مضروقه الخارجى، بقلم كوبييا وبخط ردى، بريد حرس، الوحدة
رقم، جماعه بريد رقم، يحصل ويسلم ليد أيتاى العزى، حضرة
العرىف.

غير أنه لم يعد، أبداً لم يعد. لم تنفرج لحظة الانتظار القاسية. عن
ملاحج وجهه المجعدة. وعرف أهله بعد ذلك أنه استشهد فى الحرب.
مات كتلة واحدة. موتاً بطيئاً. لم يكن يشعر بخوف ولا بترقب. بل
بحسب استطلاع لما سيلقاه، ثم واجه الشحوب النهائي، كتلة من
العذاب والقرية والأمل واللحم والدم. مات وفى ذهنة صورة باهته،
تعشش فى خياله، عن بلاد لم يذهب إليها، وسفرت لم يقم بها،
واشياء لم يفعلها، وأنمض عونه، على صورة. لحم بشرى ودعاء

حمرء. ورمال صحراء لا نهائية تتدلى فوقها سماء زرقاء صافية. كانت لهذه الشاب زوجة وأطفال، وعرفت أن الزوجة، رفضت أن تصدق أن رجلها قد مات. وكان يحدث في كل ليلة، حين يمر قطار آخر الليل، أن كان القطار يتوقف، أن صوت اصطدام عرباته ببعضها البعض. يملأ رجاياه الليل. وفي كل ليلة، كان الشاب، الحاضر الغائب، ينزل، يهيم على وجهه، يدور حول البلد بكل ما فيها، وفي نقطة معينة، مكان لا تخطفه العين ولا القلب، كان ينزل. أنه منزل زوجته وأولاده، يجلس بينهم، يتحدث معهم. يحمل لهم بين يديه النور اثنتين كل ما يطلبونه. الزاد والحلم والأمل وطريق الخلاص. وعند حلول الفجر، كان يرحل، دائماً يرحل، غير أنه منذ فترة، انقطعت عاتقه. ولم يحضر لزيارة الزوجة والأبناء. قيل أنه غير راض عما يحدث. وقيل أنه غاضب، وقيل أنه مشغول في حرب أخرى. وقيل أنه يبكي، الزاد قليل، والحبيب بعيد، والطريق طويل. بطول العمر، فما العمل يا حبيبى. وقيل، وقيل، ثم، حكايتنا حزينة الغتام. قمعرة.

الوصلة الثانية:

قال الراوى:

حكاية مصرى لم تنته بعد، مصرى فى الشهيرة، يذهب، يروح، يجرى، ينام، يصحو، تتسرب أيامه ببطء، ومصرى فى صمته،

ينسى أحياناً، أن موضوعه، كان ولا يزال أهم الموضوعات فى البلد كلها. أن مصرى يبدو للناس، كما لو كان ينتظر حدوث حدث ما، الأيام تمر. ومصرى لم يعد إلى وحدته، تلك هى القصة كلها، أولها هو آخرها. واللحظة الحاسمة التى تصل فيها الأحداث إلى الذروة لم تحدث بعد، غير أننا نستطيع أن نختم حكاية مصرى الآن.

سيدور مصرى ويلف فى البلد كلها، وذات مساء، ستحضر سيارة حكومية، فيها شرطى ومضبر ومرشد من أهل الناحية، يدهم طلب بالقبض عليه، ويهرب مصرى، وتلك هى اللحظة التى ينتظرها الجميع. وفى الحقول البعيدة، والبيوت للهجرة والسواقي القديمة التى علاها الصدا، سيقضى مصرى فترة من الوقت، وقد تستمر المطاردة أياماً كثيرة. غير أن النهاية معروفة، لا أحد يستطيع الهرب من الحكومة، سيتم القبض على مصرى، ويوضع فى السجن. هرب من الليدان فى زمن الحرب، لذا وجب معاقبته بالهند كذا، والبند كذا. سيحاكم مصرى.

الحكاية مرة، ثقيلة على اللسان والأذن والقلب.

إن جلساء الراوى يرفعون رؤوسهم، فتبدو كسابل عجفاء، فى العيون تساؤل، وعلى الشفاة كلمات يزحم بعضها البعض. والحيرة شلاً الهواء، أين الخطأ وأين الصواب؟ الأمر صعب عزيز على الفهم. أن مصرى يقول عندما يثار الموضوع، أن ما يعرفه الناس عن الأمر صحيح، ومن يده فى النار، ليس كمن يده فى الماء.

سكت الراوى، جالت عيناه فى الرجال حوله، تمثل الرجال فى صمتهم القصير معانى الحرب والدمار والموت اثقلت الجليسة على الجفون، فانسكبت نظرات العيون على الصدور، الرجال يتكلمون، والراوى ينتظر إليهم وهو صامت، إنه يتحسر على ليال مضت، كان الحديث فيها يخرس الرجال، أبو زيد الهلالي، والزناتى خليفة، والشاطر حسن والصحارى السبع، ليلئى الأبطال المسحورين والانتظار والترحل، انه يتذكر الآن، لعان عيون الرجال، غير انه لا يجد ما يقوله، كل ما عنده قاله لهم، الليل يعضى الرجال يتكلمون، فتندفع الكلمات مسرعة، وتتأرجح على الشفاه، والأذن لا تستطيع ان تلتقط حرفاً واحداً مما يقوله الرجال.

قمر الدولة الضهوراوى :

استيقظ قمر الدولة، من نومه مبكراً كماداته، وقف فى منتصف غرفة نومه، خلع الجلباب القديم، الذى كان ينام به، ارتدى ملابس كل يوم، القميص الداخلى، السروال، الصديري، الجلباب، علامات الصباح الأولى، صباح ديك فى منزل مجاور، ناشراً الفرع والاضطراب بين باقى ديكة البلد، صوت محب ثلثه الأذن، يمر فى الحواري ساعة الفجر «الصلاة خير من النوم»، ان التسنائم الباردة الرطبة، التى تهب من الناحية البحرية، تذكر قمر الدولة، بان الشتاء أصبح قريباً منه. وما ان يتذكر ان الشتاء على الأبواب، حتى

يستشعر لذة الدفء فى القاعات المغلقة، وجلالوة منزل وهج النار فى بطن الفرن، فيقرر لنفسه، بطريقة بالغة البساطة، أن الحياة ما زالت بها بعض للمسررات التى لم يعيشها بعد، انه يذهب إلى الجامع، يقضى حاجته، يتوضأ، يصلى الفجر والصبح، انه يقف على عتبة الجامع، البهوت والحواري تبدو الآن واضحة، انه الصباح ابن، قمر الدولة يعود إلى منزله، فى المنزل يقطر، لقعات مكسورة فى جفاف أظامه، يشرب شايه، يرض كرسى معسل على الجوزة.

قمر الدولة فى طريق ذهابه إلى الحقل، وعندما ترمى نظراته على اتساع الحقول، فإن نفسه تهبط بمقطع من أغنية قديمة، انه يغترب لنفسه. وقد ينسى، فيرتفع صوته عالياً، وتتحول الكلمات الجافة، إلى نغمة اشتياق تسعد نفسه، ان قمر الدولة يبدو ساهماً، الرجل يفكر، وعندما نحاول الاقتراب من تفكيره، نكون قد دخلنا ركناً مظلماً، ولو سألناه، فى أى الأمور يفكر، لرفض الإجابة، واستنكر السؤال، قمر الدولة، فى هذا الصباح الرطب من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٦، أثناء ذهابه إلى حقله، كانت هناك جملة من الأمور متداخلة فى ذهنه، كان موضوع مصرى، هو أهم هذه الموضوعات، لقد فكر قمر الدولة فى هذا الموضوع كثيراً، وما يدعشه، كلما فكر فى ابته، هو عقله، ان سرأ ما، لا يفهمه قد حدث بالنسبة لمصرى، على هذا النحو فكر قمر الدولة، غير انه فى نقطة معينة، كان يتوقف، عندما يطرح على نفسه السؤال التالى: هل

لخفاً مصرى؟ أن قمر الدولة تبدو على ملامح وجهه الخارجية، علامات مميزة.

تقلصات، سهوم في نظره، حركة مفاجئة من أصابع يده. لقد سمع منذ أكثر من يومين، من أحد الشبان، أثناء مروره من الشارع الرئيسي، أن ما فعله مصري كان شيئاً مخزياً، أنه يتذكر الآن الكلمة، غير أنه يعترف بيته وبين نفسه، أنه لم يفهم معناها، غير أن الصمت الذي أعقب الكلمة، أفهمه بالقطرة، أن الكلمة نوع من الشتمة، وقمر الدولة عندما يصل إلى هذه النقطة، يفضل أن ينصرف إلى موضوع آخر، في هذا الصباح، قرر قمر الدولة، أن يذهب إلى الحقل - يربط البهائم بجوار الساقية. يحضر لها الأكل.

وبعد هذا سيخطف رجله، يذهب إلى الوحدة المجمع، وهناك يختلي بحضرة الناظر، يسأله المشورة في الأمر. أن قمر الدولة يبدو للناظر هكذا، في اللقمة، تسير جاموسة، في منتصف سهر قمر الدولة على قدميه، خلفه بقرة، وخلف البقرة حمارة كبيرة، يركب فوقها أصغر ابناته، وبين اثنان الجميع ماعز صغيرة. لقد أحس قمر الدولة بالارتياح عندما قرر أن يذهب إلى الناظر. إنه يهمس لنفسه، يستنشق هواء الصباح الطرى يملء رئتيه، ثم يفكر في أمور أخرى. عند مروره على العمارات التي يسكنها أغنى أهل البلد، يتعنى أن تتسلى الرؤوس، وتتقارب المسافات. إنه يهمس لنفسه، بأن ما يدور في ذهنه، مجرد تخاليف صباح. حاول أن يغير موضوع تفكيره، أنه ينظر حواليه.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

حاول أن يشغل نفسه، غير أن الأرض على يمينه، والأرض على يساره، كانت تناديه، الخضرة زاهية، والمحصول واقف، وسمرة الأرض الرصاصية التي تبدو لعينيه من بين عيدان النباتات، تدغدغ حواسه، أن ما يشغله أنه لا يملك قطعة أرض واحدة، سوى منزله في البلد، وقبره في الجبابة. أما الأرض التي يزرعها فهي بالإيجار، والبهائم التي تؤنس وحشته في سيره هذا، فهي شرك، له نصفها فقط. حاول أن يقول أن الحال على أسوأ ما يكون، غير أنه تذكر أن مولانا يطلب منهم في المسجد، كل صلاة، أن يشكروا الله على نعماته، فحمد الله في سره.

الطريق ما زال طويلاً إلى حقله، وفراغ الشريف العذب، وشبهاته الباردة، وانفساح الحقول بهيب بقمر الدولة أن يقنى، وعندما اقترب من حقله، فكر بمسرات صغيرة، تقلل من جهامة الحياة وتكبتها في نظره، فكر في أيام الأعياد والمواسم، وفي يوم السوق، وفي ليالي الشوق، وفي نظرات الرجال المبللة بالإحترام، التي يقابل بها الناس ابنه مصري في البلد.

توقف على رأس الحقل. انزل أكبر ابناته من فوق الحمارة، نظر في كل الاتجاهات، كان الصمت يخيم فوق الحقول. قال لنفسه، أن الغليل قد طال به زمن المرض. وأن دواءه موجود، غير أن الحكيم لم يصرفه له حتى الآن. فمتى يكون ذلك؟

أقول لكم، لا يجب أن نلومه، بل من الأجاب علينا، إن نقرر بكل بساطة الحياة هنا، إن الذنب ليس تنبه على أي حال.

الكبار والصغار:

في البدء، ينبغي لنا جميعاً أن نتعلم، أن نعرف، أن نحاول وضع العوائق الهلامية في أذهاننا، والعواطف الجامحة في صدورنا، في كلمات محددة، قلوبنا كناية في شباك عنكبوت، أسيرة برمتها لشكل ثابت للحياة والناس، الناس فوق الأرض، ورب العباد في السماء. وما كان كان، ومصائر الناس يقررها الحكام. وقال الله تعالى في كتابه الكريم، وهو أصدق القائلين، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولى الأمر منكم.

انركنا بالفطرة، إن ثمة شيئاً ما يحدث، فإزاد اهتمامنا بسماع نشرات الأخبار، وأصبحت الأصابع تمتد إلى مؤشرات الراديو، كي نسمع المحطات الأجنبية، وسألت القادمين من البلدان بلهفة عن الأخبار، وسمعنا آلاف الأخبار، وراينا الجرائد في يد الأميان من ورقتين، فقالوا أزمة ورق، وقالوا أزمة أخبار، فضحكنا من إعجاب القلوب الثقيلة بالحاررة، وحضر ذات مساء متدوب من المحافظة، لشد سيارات الأغنياء، وقيل لمت، وقيل صودرت، وقيل تم الإستيلاء عليها مقابل تعويض مالي، قلنا فلنكن البداية، وانتظرنا يوم يأتي إلى بر مصر، يتساوى فيه الغنى والفقير.

- موجز الأنباء -

عندما قالوا طلقوا النور، قلنا لا توجد لعبة نور في البلد كلها، وعندما طلبوا منا دهان الشبايك باللون الأزرق ففتشنا بالعيون عن الجدران، فلم نجد سوى طيقتان صغيرة، البيوت في بلدتنا بثيت طلباً للمستتر، من أجل منع العيون من فضح ما بداخل البيوت.

ذهب إلى الحرب فلان وفلان وفلان وفلان. سمعنا الجيانات، رسائل الجنود للأهل والأحباب في بريد الأذاعة، وسمعت الأذان كلمات جديدة، إعلان حالة الطوارئ، التعبئة العامة، القوات المسلحة المصرية تتراجع إلى خط الدفاع الثاني في محاولة للتجميع والتماسك، إسرائيل العدو المشترك، الدفاع للقدس، الأرض والعرض، لقد كسب العدو الجولة الأولى من معركة طويلة، لقد خسرتنا المعركة ولكننا لم نهزم. ذلك أن العدو لم يتمكن من فرض إرادته علينا.

- كان هذا هو الموجز،

والهكم الأنباء بالتفصيل من القاهرة.

نحن أهالي الضهرين، بحيرة، نقول.

ثم كان السمعت والانتظار، وخلال الانتظار، أصبحت الحقيقة ساعة، والساعة يوماً، واليوم أسبوعاً، والأسبوع شهراً، والشهر عاماً والعام أربعة أعوام كاملة، نحن رجال صموثون، صبورون، صبر أبوي من المذاق، غير أن كرامتنا معلقة فوق الجباه، بدلاً من الكوفيات والثناج، الذي تلف به الوجه في أيام الشتاء البارد.

- أيها المواطنين.

إليكُم هذا النبأ، حدث أن.

ثم كان موضوع مصري.

ولا ننكر أننا ناقشنا الأمر على اللصاطب، وفي صحن الجامع، وفي الباحة الصغيرة، وفي العشة مع الراوى. وفي الحقول، وعلى مدارات السواقي، ناقشه كل واحد مع نفسه على انفراد، غير أننا لم نتفق في نهاية الأمر على شيء. قال أحدنا أن مصري عمل لعبة مع الحكم الكبار في مصر، وبمرطل وأخذ شهانة للمعاملة، وحضر إلى البلد، وأن يعود إلى الخدمة بعد ذلك، وكل شيء بالقرش. وقال: أن حنك الحكومة مفتوح، وطالما أن يدك بداخله فكل شيء على ما يرام. وقال آخر: أن قمر الدولة قد طلق زوجته، أم مصري، وبالتالي فمن حق مصري أن يعفى من الخدمة العسكرية، على اعتبار أنه العائل الوحيد لأمه المطلقة. وقالوا أن الطلاق قد تم سراً. وأن قمر الدولة دفع مبلغاً كبيراً من المال للمعاونين نظير أن يتم المشروع. اتقسم البعض منا، أنه شاهد بنفسه، كشف العيلة الذي كتب فيه هذا الكلام. وقال ثالث أن مصري في إجازة طويلة، وأنه يدفع مبلغاً من المال، للشاويش في وحدته، وهو يكتب حضوره يومياً.

- يا عم دا كله تخريف.

ألى عمله مصري، دا خيانة، مصري هارب.

قول لنا، في هذا للسام، أننا نعيش في دولة. وأن هذه الدولة لابد

أن تحترم. وأن الدولة أن تقدرت هيبتها، فقد فقدت في نفس الوقت مبرر وجودها. كانت التحدث. هو أحد مدرسي المدرسة، قال لنا: إنه سيتم القبض على مصري، اليوم أو غداً، أو بعد غد، الأسود ليست سائبة، وعند سماعنا لهذه الكلمات، خفنا كلنا من مصري الموضوع كله يحيط به الغموض. لقد ارتبط موضوع مصري بالدولة حسب تعبير المدرس. والحكومة حسب كلامنا نحن. والحكومة في نظرنا نحن الفلاحين البسطاء، هي المكاتب الكبيرة والعمارات العالية والأبنية الضخمة التي يقف أمامها العساكر في البنادق البعيدة. القطارات السريعة، وأسلاك التلغرافات التي تحتفظ بداخلها لخطر الأسرار.

في مساء الأسس. قال مولانا، وهو يأمرونا بتسوية الصفوف، أن ما حدث وما يحدث وما سيحدث لمصر. كان مقدراً منذ آلاف السنين في القلوع للسطور. اكمل. ربما لا نسلك رد القضاء بل اللطف فيه. وقال للرجال، لو أطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع، نظر كل رجل إلى الواقع بجوارحه، حقق في وجهه. همس كل منا لنفسه، بأن ما حدث كان غضباً من الله على بر مصر. وأن قضاء أخف من قضاء آخر، ولا بد من قبول ما حدث.

- لم يبق يا أبنائي، سوى سابع عجائب هذا الزمان

قال مولانا هذا واستدار. أنه يتجه الآن إلى القبلة. على الجدار القبلي. تصرخ الرسومات والنقوش والكلمات، تهيب بنا أن

نستسلم، تعدنا بالجنة، وتصف الصراط المستقيم والجنات والأنهار
والماء والخضرة والوجه الحسن.

— نويت نصلي صلاة المغرب جماعة.

— الله أكبر.

— الله أكبر.

بعد الصلاة، تحدث مولانا كثيراً عن القلوب الخالية من الرحمة،
والخلاعة في البنايا، والكفر والخمر والنساء والميسر. إن صوت
مولانا يعلو في صحن الجامع، فيسمع له الرجال رنيناً محبباً.
— إن القضية يا ابنائي، ليست النصر أو الهزيمة، بقدر ما هي
محاولة للبحث عن شكل أكثر نبلاً وطهراً للحياة في بر مصر.
وتمر فترة صمت مثقلة بعلامات الاستفهام:

— وعن أبي هريرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

— عليه الصلاة والسلام.

— إنه قال:

إن شعوراً بعدم الفهم يسيطر علينا، ما حدث هناك لا يمكن
تصديقه. إننا عندما نسمع كلمة العدو، نحاول أن نفتش في نفوسنا
عن معنى هذه الكلمة. نحن كثيراً ما نتعارك. وقد يتحول العراك إلى
عصا ترافع، وقنوس يلعب حديدتها في الهواء، ودماء تسيل، يكتسب
لونها القلبي معناه على تراب الأرض. غير أننا في النساء نجلس معاً.
نحلق، يقبل الغلطان من وقع في حقه الغلط، وننتهي الموضوع.

وتأتي رياح الليل الشمعانية، بعد صلاة العشاء، كي تغسل النفوس.
— قوات العدو تقوم صباح اليوم.

العدو، العداوة، الحرب، القتال، الاشتباكات، تبادل إطلاق النار.
نحن هنا نسمع هذه الكلمات، وعندما نسمعها نديرها في الرؤوس،
نحاول أن نجعلها جزءاً من مكونات عقولنا، غير أنها تظل طافية
على السطح، معزولة غريبة منسية. ورغم عدم الفهم، فإن
الإحساس بعدم الأطمئنان للغد، والغد معنى مطوًى، يصل إلى
سنة كاملة. موجود لدى كل رجل، إن الرجل منا يتوقف في
منتصف ضحكته، يمسح فمه بظهر يده، يقول لنفسه، اللهم اجعله
خيراً، ثم يؤكد لزوجته وأولاده الذين توقفوا عن الضحك، أن الأيام
القادمة، ستجعل لنا كارثة محققة الحدوث، مصيبة تهز البلد، هزة
لم تحدث من قبل.

منذ أكثر من عام، قال مولانا قبل الصلاة، إن هذا الزمن زمن
العجائب. ورغم الركوع والسجود، وتلاوة آيات القرآن، فإننا جميعاً
قد شغلتنا هذه الكلمات، لدرجة أن بعضنا أخطأ الصلاة. وبعد أن
ختمنا الصلاة، ودعونا الله، ساكننا مولانا عن هذه العجائب، اقترب
منا، قال إن لحيطان ثنائياً، وأنه لا يطلب لنا سوى السلامة. قال
مولانا: إن هذه العجائب هي العلامات، التي ستقرب اليوم للشهود.
طلب من كل منا، أن يحاول أن يفتش عنها أينما اتجهت عيناه،
وسيجدها في كل مكان. ساكنه: كم علامة ظهرت حتى الآن، قال
سنة.

— والعلامة الباقية.

— استغفر الله ربى.

راح كل منا يصور الأمر لنفسه، غير أن شيئاً شعوراً لا لون له.
سرى في النفوس، علامة واحدة وينتهى الأمر كله. أن الانتظار في
حد ذاته أمر عذب، وفي هذا الكفاية، قال مولانا، فلنترحم على من
ماتوا، ولنحزن على من نهبوا ولم تكتب لهم العودة، ولنطلب
السلامة لمن ظفوا هناك، ولنرفع الأكف والعيون والقلوب نحو
السما طليين من العلى القدير أن يمر يومنا بسلام.

مصوى:

سيدى قائد الوحدة رقم.

لى الشرف.

وكلى ثقة بما تتحلون به سيانكم من انصاف

وعذالة.

سيدى.

كان سلوكى دائماً .

إنى مسؤول عن رعاية أسرة مكونة من.

وسبق أن أهديت بطولات خارقة فى معركة.

هل تذكر سيدى.

قائد وحدتى.

عائد إليكم.

اقول لسيانكم.

اكتوبر سنة ١٩٧١.

إن مناطق من أرض مصر، ما زالت تؤكد كل صباح، أن أقدام
الغرياء تدب عليها فى الذهاب والعودة. وأننى أدرك الآن، أن أرض
بلادى أصبحت مباحة لأصوات الأقطار البعيدة، حيث تسمع فى كل
وقت، كلمات غير مفهومة، بلهجات غريبة، ونرى وجوهاً لم نرها
من قبل.

فى الصباح، أصحو من نومى، أغسل وجهى، أترك رأسى تحت
المياه، أدرك أثناء تناول الإفطار، أنه ليس ثمة شىء ما يمكن عمله
خلال اليوم كله، فهدب فى القلب والنفس فتور غريب، انتظر أمامى،
على البعد تتدلى سماء خريفية شاحبة، وتحت السماء خيام
وسيارات وتقط مراقبة بعيدة.

قلت لكم مراراً، أن الانتظار قد طال. وأن العيون قد ذابت من
كثرة التحديق، وأن الرموش والوجوه قد ملت الأمر كله. وإن الدقائق
والساعات والأيام والليالى قد تأكلت من طول المسافة وبعد الوقت.
قلت لكم، إن الصدا قد ران على القلوب والشفاة، وأن القطارات
الليلية، تلك التى تمر فى ظلمة الليل وصمتها، تذكرنا بالأهل

والأحباب. إننا عند سماعنا صوتها، نستدير، نعطى ظهرنا للناحية الأخرى. ونسمع العيون والقلوب في مناظر بليتنا الحبيبة. قلت لكم ذلك من قبل مراراً.

غير أن ضابطنا قال لي ذلك مساء، وكان الحديث اقرب إلى التجوى. انتم لستم رجالاً. همس لنفسه. إن هذا الزمن ليس زمن رجال. ذهب الرجال وذهبت دولتهم. سألني. هل ودفنت في الرمال من قبل أياماً؟ قالت لا. سألني. هل عجنت الخبز ودفنته في رمال الجبل حتى ينضج بفعل الشمس ثم أكلته؟ قلت لا. سألني هل نمت في العراء خلال الليالي الشتوية شهراً بأكمله دون غطاء؟ قلت لا. هل شربت البول؟ لا. هل أكلت الثعبان من الجوع؟ لا. هل تعرف كيف تدلوى قرصة العقرب بدون طبيب؟ لا. هل تستطيع أن تقضى شهراً بأكمله دون لحظة نوم واحدة؟ هل تستطيع أن تعرف الجهات الأربع في صحراء متراعية الأطراف دون دليل أو بوصلة؟ ربت على كتفي، ولى زمن الرجال إذن. سألت نفسي. هل نحن أنصاف رجال؟ رد على وكأنه كان يسمع تساؤلي. ليتكم ساويتهم هذا. ترك حديثه في النفس إحساساً مائعاً كسحب الصيف الكاذبة. التي لا تحمل سوى الوهم. كان السؤال ملحاً: كيف؟ ولماذا؟ وكانت الإجابة على السؤال في ضراوة الموت نفسه. وتوقفت طويلاً في صمت الليل أمام كلمة نحن. رحت أديرها في ذهني أكثر من مرة. من نحن؟ وتمثل لذهني صورة الكرة والشوارع المبطنة بالفتيات.

والحم الأبهض والتأوهات والأنصت لمسيدة الغناء العربي. والأكف النائمة في الأكف والعيون المغسولة بالدموع. إننا لا نتحيايل ولا نفعل كل صباح بطولات خارقة. لقد أدركنا منذ البداية. إن ما في نفوسنا عظيم. وقلنا أن مصر إن تعرف العقم أبداً. غير أننا أدركنا الآن. أن أقصى ما يمكننا عمله. وبعيداً عن العبارات النبيلة. هو أن نتحفظ لأنفسنا بقدر ضئيل من النقاء الداخلي. بعيداً عن الطوفان. وإن نطلب من الذين سيأتون بعد الطوفان الذي سنغرق نحن فيه. أن لا يلومونا. بل يحاولون أن يجدوا لنا العثر.

إنني أذكر الآن. مناقشاتنا. كلمتنا. أيامنا واليالي التي دفناها في صفحات الكتب. الشعيرات السوداء التي تساقطت من فوق الرؤوس قبل الأوان. أيامها. كنا قد قررنا تغيير العالم. فلنا تغييره من أساسه وإلا فلا. وقررنا أن من يناقشنا هذه الرغبة. خائن وعميل ولا يستحق شرف الحياة في القرن العشرين.

لا أدري كيف اكتمل الحكاية. غير أنني أدير وجهي. وأقول بصوت لا أريد أن يسمعه أحد. أقول أن ما حدث بعد ذلك. إننا كسرنا. تلك هي الحكاية.

وفي كل يوم. ومهما أعمل طوال يومي. أجزى. انهض. أتحدث. أتم بتمريعات رياضية. أغسل ملابسي. أعد طعامي. أقرأ. أكتب الأشواق والحزن على أوراق معطرة. أبحث بها للأهل والأحباب. ورغم كل هذا. فثمة لحظة بعينها في آخر يومي. إنها لحظة الغسق

الرمادية، أجندى وحيداً، وحيناً إلى أبعد حدود الوحدة. في هذه اللحظة، أرشف الصمت والنظام، وأبكى يوماً ميتاً سقط من حساب العمر. وفي لحظة الوحدة، اقتش من بداية يومى. فأجد أنه تفصلنى عنه آلاف السنين.

سنوات قمبيز وهولاكو وبونابرت وليالى قطر الندى وخمارويه وثملات الحاكم بأمر الله. وسجون المالك وخيانة خاير بك وتخلي الخديوى توفيق عن مصر. وبذخ الخديوى اسماعيل. فادرك هول ما أعيشه.

وفى آخر اليوم، لا يكون هناك من أمل، سوى فى حديث النفس، وخلال حديث النفس، أقرب من الجنون، أقرب يوم العودة. أشق شارع رمسيس فى مواكب الإنتصار وأمامى أسرى الأعداء. أخطب فى الجماهير راسماً شكل الحياة فيما بعد النصر، أرسل تهديداً رسمياً إلى ريتشارد نيكسون فى مقره بالبيت الأبيض. أعيد تنظيم العمر والعالم من جديد وأعيش فى دنيا لا وجود لها سوى فى خيالى.

أقول :

كانت أيامى صراع وتراب وأنين.

الوصلة الأخيرة :

قال الراوى :

علمتني الأيام والليالى. وحوادث الزمان، هذه الحكمة الصغيرة. يجب أن نجعل حبورنا على الصوت. وأن يغطى ضجيج الفرح والسعادة على أى صوت آخر، حتى لا يعود الهم القديم فيستولى علينا من جديد.

الضهرية. لها شارع رئيسى يقسم البلد نصفين. تتفرع منه الحارات على الجانبين كالخطوط على ورقة القوت. فى منتصف البلد مسجد وباحة. وحول البلد قناة صغيرة، تدور على شكل نصف دائرى. تجري فيها المياه. وتنعكس على سطحها البيوت والحارات والأشجار. وفى الباحة وعلى المصاطب يتكلم الرجال كثيراً. وفى مثل الحياة وانعزالها. كثير من المؤثرات ومحاولات الإمتاع والكتب.

لقد لف الحديث بنا دوار. وحكايتنا اقتربت من نهايتها. لم يعد مصرى إلى وحنه. وشى به أحد أبناء الضهرية. أو المنكور أعلاه يقيم فى البلد بصفة مستمرة، وقد أكمل أكثر من شهر حتى تاريخه. والأجر والثواب عند الله. حضر منبقى القبض عليه.

- أنت مصرى قمر الدولة الشهراوى؟

- ليوه يا أئندم.

يضع الحديد فى يديه. أحاط به رجلان، قيل إنهما من مباحث

الركن. وابتعد الثلاثة عن الضهيرة، إن عيون الرجال تلاحقهم.
والرجال الثلاثة في سيرهم البطيء يتبعون، ويصغر حجمهم كلما
ابتعدوا. وفي النهاية أصبحوا نقطة باهتة السواد معلقة على حافة
الأفق.

واختفوا تماماً.

وانقطعت أخبار مصري بعد ذلك عن البلد.

- يا سادة يا كرام، ما يحلى الكلام إلا بذكر النبي، عليه الصلاة

والسلام :

- صلى الله عليه وسلم :

قال الراوى :

- قلنا في الحكم والأمثال :

- الأسد أسد وإن كنت مخالفه.

١- السفر :

.. هل أنت مسافر ؟

يسمع سؤال أمه، تشتطيق شفقاها على استنفهام جارح، يتقف امامها، يتطلع لها في صمت.. يرقع يده محاولاً أن يلوح بها دليل الموافقة، تقف يده المرفوعة في منتصف المسافة بينهما، ترف الكلمات على الشفاه كالطير الحبيب، يكويه الحنين، يشعر بعطش جارق، رغبة في الارتواء، في وضع رأسه المتعب على الصدر الجاف الذي يواجهه، من الآن وحتى نهاية العالم، انتهت الاجازة أخيراً. خمسة أيام بلياليها، تبدو له كحلم، كقمضة عين.

حاول أن يبدد وحشة الصمت.

.. إن شاء الله مسافر.

لم يجد غير هذه الكلمات في خاطره، وفي لحظات الوياح، يوجد دوماً بين اثنين يفتقران بعد ألفه، شلال من الكلمات التي لا تنتهي أبداً، لا يفهمها شخص ثالث، ولا تقال هذه الكلمات إلا في اللحظات الأخيرة. غير أن «الدبش» لم يتكلم، بدا له أن الصمت هو بر الأمان الوحيد، فصمت.

أمه تقف أمامه، الوجه غابة من التجاعيد، العينان نقطتان غائرتان فوق الخدود، تنظران له، نظرة ذات تفوق خاص، أنه يشعر أن هذه النظرة قد انجزت كل الأمور الخاصة به معها. ومن خلف أمه، تبدو لعينيه مكنونات بيت ريفي قديم، تلوح منه رائحة العوز والحاجة.

والده وأخوته في الحقل، والحقل بعيد. وهو مسافر الآن، ولحظات
الفراق مرة اللذات، صعبة على اللسان.
تلك هي بداية قصتنا.

وهي كما ترون مشوجة بالحزن، مبللة بالأمس. يقف شاب،
يرتدى ملابس الرسمية، ملابس الجيش، أمام أم لا يبدو منها من
بعيد سوى السواد، ويمكن أن يقال، إن اللون الأسود بكل تدرجاته
سيد الموقف، جلبابها أسود، على الرأس طرحة قديمة، بهت لونها،
الأرض تحت الأقدام تراب، وهو درجة من درجات السواد. والحائط
خلفها، كان رصاصي اللون، في الزمان القديم، أيام العز التي ولت،
ولكنه ومع مرور الأيام، غطته طبقات السناج الكثيفة فبدا أسود.
إن مشهدنا لن يكمل دقيقة أو دقيقتين، رغم أهميته في القصة.
وقبل أن يستدير الدبش، هارباً من وقع اللحظة عليه، سألته أمه
السؤال القديم.

— (فاضل قد أبه يا أبني وتخلص ؟) .

تتلوى الألفاظ في فمه، ترف في نفسه، كل الأمنيات المؤجلة :

— (لسه بدرى .)

يكمل :

— لما يثون الأوان.

همست أمه :

— فوجه قريب.

وقالت ملامح وجهها، كلاماً عن الحال، والحاجة والعوز والأحتياج
واكدت عينها أن صبر أيوب نفسه نقد، وإن الانتظار طال، ثم ومتى
يأتي الفرج ؟

استدار سريعاً، خيل إليه أنه يرفع يده تحية لها وسار خطوة،
وسمع همساً مبحوحاً. قالت أمه كلمات، طار على جناحها إلى عالم
آخر. كانت الكلمات ناعمة، أحس حيالها بإحساس الإنسان عندما
يسمع من شخص يحبه، كلمات طيبة، أن الكلمات تسعده، دون أن
يعلم الموضوع الذي تدور حوله.

خرج من المنزل، يده اليمنى في جيبه الأيمن، وفي يده اليسوى،
حقيبة من الورق اشتراها من البقال لا يعرف ما بداخلها، فأمه هي
التي رتبت ما بداخلها، غير أن بقعاً كانت تنتشر على جدارها
الخارجي، كانت تعلن عما بها. ومن حوله، كانت القرية غارقة في
سكون ساعة العصرى، سار الدبش في دابر الناحية، وفكر في أول
اجازة حصل عليها. شاب فلاح خلع الجلباب القلم ليرتدى بنظلوناً
أسفر، وملأت أنفه رائحة الملابس الجديدة، التي ذكرته بليلتي الفرج
وأيام الأعياد، في عينيه خضرة الحقول الربيعية، وفي القلب اثنين
السواقي في ليلتي الصيف القمرية، وفي أنفيه أسوار الحفول
الليلية، ووشيش أموات الذرة، وهزات النخيل والأشجار، وعلى
ملامح الوجه، كنت تقرأ لفحة شمس ساعة القيلة القاسية، نسمت
أول الليل الطرية. ومن عابثه كنت تعرف أن النوم على الأرض
متعة، وإن القناعة والرضا بالقليل من أهم صفاته.

الوقت ساعة العسائر، والشوارع والحارات، تهدو خالية موحشة، وصل إلى مدخل البلد، وبعد المدخل، كان الجسر، هناك انتظر سيارة ينهب بها إلى أقرب البنابر، البلدة تبدو له الآن، في مواجهته وهو ينظر لها بنهم، ويشعر أن المراثيات والبيوت والأشجار والسماة الخائفة في قاع الصورة تستقر بداخله، تذوب في دفه الحنين في نفسه، وامتدت له الأيادي، أكف مشقة من المتصف، خشنة، سلعت عليه، ضلعت على كفه، الذي ذاب شاعماً في الأيام الأخيرة، سالوه عن الحال هناك.

— الحمد لله.

— تستاهل الحمد.

سمع كلاماً كثيراً، تدفق من أفواه الواقفين حوله، وراح ينظر إليهم، أن بعضهم على سفر مثله، وينتظر سيارة، والبعض الآخر يقف هنا، محاولاً أن يضع الوقت المعطوط للعمل، حيث لا عمل في مثل هذا الوقت من النهار، وعادت الكلمات تصله خافتة كالأنين، وميزت أنه كلمات تناثرت وسط الأحاديث العائرة، كلمات عن الصبر والألم والانتظار وفرقة الأحباب، وكرروا سؤالهم له، عن الحال هناك، فلوح لهم بيده، دالة أنه لا يريد أن يقول شيئاً، وقالت لهم ملامح وجهه المتعبة ما يريد قوله.

— يعني؟

— يعني تمام.

— طبعاً.

ولتصورهم أن كل المجندين، في مكان واحد، وأن الدنيا صغيرة مثل بلدهم، راح كل منهم يسأله، عن ابنه أو أخيه أو قريبه، وهو متأكد أنه لا بد وأنه يعرفه.

— في أي سلاح؟

— نعم؟

— في أي سلاح؟

— والله، أصل.

— الجيش كبير، وفيه أسلحة كثيرة.

يحاول السائل أن يتذكر، ومن المؤكد أنه لا يعرف، ولكنه أمام الواقفين، وبعضهم غريباء عنه، يسبب الذاكرة الشعيقة، ويلعن أيام تلك التي أنسته أعز الأشياء، ورغم هنا قبعد قليل، يحمله السلام لأبنه، ويطلب منه أن يعاتبه، أن الجوابات قليلة جداً، منذ أسبوع مضى، ولم تصلهم منه رسالة.

— وهل هذا كلام؟

يكمل، أن المراسلة، نصف المشاهدة، وأن المجندين بخلاء، ويضع يده في جيبه، في محاولة فككه، سيعطيه ثمن ورقة (البوستة)، وانظرف والأقلام، ويمنعه الواقفون، ويقول أحدهم، أن للمشاكل هناك هي السبب، ويقول آخر أن الحياة عندهم صعبة، وأن يشعهم في

الجيش مختلف عن أي شيء آخر، يجب ألا يشغلهم بالجوایات،
وخلافه.

— كان الله في عونهم.

إن الحديث يوشك أن يتوقف، والكلمات تنطق، ويسمع الدبش
أدعية خافتة، ويرى نظرات وجلة تلمس السماء، وكلمات تطلب له
ولزملائه التوثيق والسلامة ثم ينصرف كل لحال سبيله

٢ — الجيـه والشراء :

عندما حضرت السيارة، لم يكن بناظرها مكان .

وقف في الخارج، وسارت السيارة، وراح ينظر نحو بلدته أنها
تدور ببطء، وتبتعد عنه، هابطة، وتعجن عيناه منظر بلدته، وتتداخل
الزوايا، ولا تبدو له سوى الألوان، اللون الرمادي الغامق، والأسمر،
والخضرة الزاهية، ثم اللون الأزرق الصافي. أن آخر ما رآه كان
اللذنة، مئذنة جامع صفراء اللون، عليها اثربة، تبدو متجهة نحو
السماء، تشرب من قلبها الأزرق المعطر بهدوء ساعة الغروب.

سأل نفسه، وهو يستدير، متى سيضع قدمه على تراب بلده
مرة أخرى. وفي أعماقه كان هدير الانفعال يؤنس وحشته.
في الهندس المبعد، اشترى ما يحتاجه، وقف محتاراً، أنه وزملاءه
محتاجون للكثير، ولكنه راح يختار. قلب واشترى، حاسب ووقع
الأثمان وأخذ الباقي. وكانت الحصيلة : ابرة، خيط أسود وأصفر،

ملب ورنيش، كميات من الكبريت، مجلات قديمة، ورق أبيض،
أظرف، أقلام حبر جافة، أرطبة للحمض الأسود، والكلوتشوك
الأبيض، منديل، مرآة صغيرة، حجارة للراديو الترانزستور، وضع
ما اشتراه في حقيبته. وكان يتصور قرح زملائه بما معه، فيشعر
بنفء السعادة يلف قلبه. وفي مسيره، كان يود أن يشتري البشارع
كله، بكل ما فيه، الأنوار الباهرة، المأكولات، الناس، بل كان يفكر
كيف يأخذ معه قليلاً من اجتماع الناس في مكان واحد، ليؤنس
وحشة زملائه، وليبدد كآبة الصمت الشليس. أتجه إلى شارع آخر
سيشترى وجبة عشاء هذه الليلة، له ولزملائه، أكلة طازجة يشتريها
بلا تفكير سابق، حسب ما يجده. وقف أمام أكثر من بائع، عاين
وفكر وسأل عن الأسعار وأخذ ما يريد، ونظر حوله فوجد كل شيء
يسبح في بحر من الأنوار فعجب من أمره.

كان القطار سريعاً، وكان قد دخل وسط الرمال وخلف وراءه
الأرض الخشراء، نظر أمامه، تلال من الرمال خلفها جبال عالية،
تلف وتدور، في حركة نصف دائرية، مركزها القطار. كان يجلس
بجوار نافذة. وشعر أنه يخفو ويغمض عينيه. وتذكر كلمات أمه
وداح يتصور لحظة وصوله إلى العسكر. تسليم التصريح، السلام
والتحايا، خلع بذلة الفسحة، ارتداء الأثروب وضع يده في أيادي
معروفة جافة خشنة، العناق، القبلات من شفاه مالحة الطعم،
السؤال والجواب، محاولة معرفة ما حدث خلال غيابيه، بدء الحديث

عن ضجة المدينة الكبيرة ولغطها وزحامها، ورائحة لغة جديدة عليه،
وهي لغة البنائر البعيدة، وتوديع لغة قريته الصغيرة، لحظات
الغروب في وحدته، آلام الصمت، النظر إلى سماء هائلة.

على مشمع قديم، أمام الخيام، جلس وسطهم :
- أخبار أبلد.

يفاجئته السؤال، يتوقف لأقل من دقيقة،
- الحمد لله.

على الشمع يشع ما الحشرة من الطعام.
سأل زملاؤه أن كانت قد حدثت تمركات، أو تخبه عليهم
بالاستعداد لعمليات، أو الخروج في مشروعات أو أي تغيير في نظام
الخدمة.

- والسؤال، ماهو مبرره ؟

يلمح ضيقاً على ملامح الوجوه :

- الحال كما هي.

يقولون له، أن الحال لم يتغير عن يوم سفره، بل ولم تتغير عن
يوم نزوله إجازته الأولى، منذ سنوات لم يزد ولم ينقص شيء. كل
ما يحدث محدود، النوم والاستيقاظ، الكلام والصمت، الجوع
والشبع، الظما والأرتواء، الطوابير بأنواعها المختلفة، ليلتي الخدمة
وليلتي الراحة، غسل الملابس ونشرها على الأسلاك الشائكة، ورفع
العلم ساعة التهاتف، نوبة الصحو، المحافظة على مواعيد النوم،

التمشي ساعة العصارى كل بمفرده، يحدث نفسه كالجائنين، العودة
قبل سقوط الليل، خوفاً من الشوهان في وسط الصحراء، الذهاب
إلى شاطئ البحر وقت الظهيرة، دهشة الدبش، وهو يشاهد - لأول
مرة - بحراً بلا شاطئ آخر، جلسته على الشاطئ، المياه في زرقة
السماء، مناب فيها كل أملاح العالم، اصطواد السمك، العودة، النظر
إلى الأديرة على الطريق بين البحر والعسكر، العجب من تلك
الناطق الخضراء كالرحمة وسط الصحاري الواسعة، وفي هذه
الأماكن البعيدة عن العالم، ثمة وشايات صغيرة، وأحقاد، وفي
الصدور مساحات للأحلام والمنى والأمال، أنها تطفو على السطح،
ويفرحون بها، كعمالة لكسر الدائرة المحيطة بهم، محاولة كل
مساء، لغسل كآبة اليوم الميت، تمزيق لحظات الانتظار المملوطة،
بالكلمات والحكايا، كانوا يودون أن يقولوا له أنهم يلعبون الورق،
هناك خلع الجبل، يلعب أربعة اثنين اثنين، ويتولى الخامس
حسابات الربح والخسارة ويراقب ساندسهم الطريق. أنهم يلعبون
السيجة ويوغلون في السير بعيداً، وبعضهم قد تاه وسط الصحراء.
(أنت عارف إلى حصل من يوم ما نزلت) - تكلم أحد الأفراد
وهو يكل - يادبش، خمسة أيام وخمس ليلتي، طول عراض، بطول
العمر نفسه، مروا، مروا لأن الليل والنهار لا يد من أن يتعاقبا. سنة
الحياة، إنما كيف تم دا. لا تسأل أبداً، نرجوك جميعاً الاتسأل.

« وبعد

وصلت بسلامة الله إلى المعسكر، مساء اليوم، أنا بخير، صدقوني. ولا ينقصني سوى مشاهدة رؤياكم الغالية، طمئوني عليكم واطمئنوا. سلامي إلى أهل المنزل، فرداً فرداً، وكل واحد باسمه.

وحتى نلتقي!.

٤- رغبة الكلام :

آخر الليل.

جلسوا أمام النعام، تكلموا كثيراً، علقوا على كل ما حدث. حاولوا التنبؤ بما سيحدث. حكوا الحكايات من خيالهم. ومع قدوم الساعات الأولى من الليل، فثرت هماتهم، وجفت الكلمات على الشفاه، وماتت عبارات نسجتها اللحظة الحاضرة.

- هيا إلى النوم.

ككل يوم، أخرج كل منهم مشععه، قرشه على الأرض، وضع مخدته تحته رأسه، فرد بطانيته. واستعدوا للنوم، أن جو الخيمة، يبدو مطعوناً بمساحات الظلام، أنه يبدو في سواد ليل العشاق. ولكن كل منهم، كان يدرك طريقه، ويعرف المكان الذي سينام فيه. أن نوعاً من التدريب والمهارة في التعامل مع جو الخيمة، دون أنوار، قد علمتهم إياه الأيام الماضية.

- تصبحوا على خير.

كان من المفروض أن يناموا، أن الوقت بعد العاشرة، غير أنه ثمة لذة خاصة، في الحديث وهم نيام، حتى لو كان هذا الحديث همساً، وبمهما قيل، خلال اليوم من الكلمات، ومهما تعاركوا وتشاجروا وتناكروا بالأيدي، فإن الهمس والنجوى في آخر الليل في هذه الخيمة الصغيرة، له طعم خاص.

- والاجازة القادمة متى أن شاء الله؟

انفجر الآخرون بالضحك، ولكن بصوت مكتوم. كان صاحب السؤال هو الديبش، العائد من اجازته الليلة. تناولوا سؤاله بالتعليقات، ورغم شلال الكلمات الهادرة طوال النهار، فإن بعضهم، يشعر الآن، بأن في داخله علماً يكمله من الكلمات، التي لم تغل، قال له زميله :

- ديبش، طبعاً قابلت المستورة.

لم يرد، انهالت التعليقات من زملائه، وسمع تنهيدات وكلمات شوق، ولعت العيون، فبدا لعانها رغم الظلام، ود أن يتكلم، ولكن الكلمات بدت له كالحجر فوق حبه القلب.

سأله زميله :

- بتحب يا ديبش؟

شعر أنه يتعمد عنهم. وراح زملاؤه في هدأة الليل، يحكون قصص حبه، كل منهم يحاول أن يحكي قبل الآخرين، وقاطعوا

بعضهم، غير أنه شعر أنه وحيد، حوله الآن ثلاثة من زملائه، غير أن وحدة تلجية جمعت روحه، فراح يفكر في صمت.

تحدثوا، كان الحديث يدور بينهم جميعاً في أول الأمر، إلا أنهم تحولوا بعد هذا، أصبح كل اثنين يتحدثان على انفراد، وراحت الأتواء، تستمر في الضلال والكلمات، عادة، تشتعل من بعضها، وتزداد حمى الحديث، ومع حديث الليل الهامس، يبدو التذخون رغبة رائعة، والمشكلة من الذي يبدأ بإشعال سيجارة، وستكون سيجارة واحدة، تمر معهم جميعاً، ويكون من السهل اخفاؤها إذا انكشف أمرهم.

— ولكن التذخون.

— للضرورة أحكام يا أخى.

— أشعل السيجارة يا جندي.

— نحن نحتفل بعودة الدفعة دبش من إجازته الميمونة بسلامة الله.

ولم يكن ثمة كلام آخر يقال، فهم يعيشون في مكان بعيد، منسى، لم يعيش فيه من قبل أحد، وإن يسكنه بعدهم فرد ما. مهما كانت الظروف، وحزنتهم الوحيد، أنهم يعيشون فيه بلا عمل، يثلهون على يوم المهمة المنتظرة، لم يكن في حياتهم أى جديد، يمكن أن يتحدثوا عنه، فالحيطة شحيحة، بخيلة، والصبر والانتظار أصبحا بلون الصحارى البعيدة، وصمت البحار المترامية الأطراف.

وفى أحاديثهم، سبق أن تكررت الكلمات حتى فقدت مذاقها فى الأتواء، وخرجت من قواميس حياتهم، عبارات حفظوها من أبنائهم الأولى. أيام الاشتغال بالحماس والاحلام، عبارات عن التدريب والطاير والمشاريع والناورات. ولكن ما مبرر استخدامها الآن. وبهذا نصل إلى مشهد الختام فى قصتنا.

الأربعة نيام على ظهورهم. والنخيل لا يبدو وسط ظلام الخيمة، غير أن السيجارة تبدو كوميض خاطف بين الحين والحين، وخلال هذا، فإن وميضها الأحمر الذى يشتعل ثم يعود إلى الذبول. إن هذا الوميض ينتقل، أنه يلف بداخل الخيمة على شكل مربع، وفى الخارج كانت نسمة هواء ليلية، ليته. تهب من ناحية الشمال. حاملة رائحة الخريف معها. وسط الخيام المتناثرة. وفى صمت الليل. كانت نغامت الساهرين فى الخيمة تذيب صمت الليل، وتبدد وحشته.

— من هناك؟

— قلب من أنت؟

— كلمة سر الليل؟

— تقدم.

في الاسبوع سبعة ايام

(١) مدخل لامبور له ولكنه يقوم مقام المقدمة

وقت العصاري، دق تليفون دوار العمدة، لم يكن الكاتب موجوداً،
رد عليه الخفير النويجي، طرد نوم العصاري من عينيه، ونفض
كامل آخر النهار، وقام، أمسك السماء، لامست لثته خروشه، بعينه،
أبعده، وبدأ ينصت، لكي يكون انصاتها تاماً، مد أصبع يده، سد به
أذنه الأخرى، لمل رأسه على السماع، رفع صوته:
- ألو يا نقطة.

ثم صمت. كان اليوم ينحدر يتثاقل نحو نهايته، وهو يبدو يوماً
خريفياً هشاً وهائلاً. المار أمام دوار العمدة، في ذلك الوقت، لم يكن
يسمع سوى كلمات قليلة، منتزعة من جملة، مبتورة المعنى، تخرج
مهذبة من فم الخفير:

- نعم، أيوه، مضبوط، أي أوامر.

آخر كلمات كانت:

- أنا الخفير النظملي، من قوة حراسة قرية الضهرية التابعة
لنقطة بوليس التوقيفية، مركز إيتاي البارود بحيرة بالفندم.

خرج الخفير من حجرة التليفون، حرك يديه أمام وجهه، دافعاً
بهما الهواء، مجففاً بهما حبات عرق، نبتت فوق جبهته رغم برودة
النجو، اتجه إلى دوار العمدة، في الناحية الأخرى من الباحة الواسعة.

ماشتاك يانور

الا لما دابت العيون

« مثل شعبي قديم »

أكدت خطواته أهمية وخطورة ما يحملته السماء لونها بنفسجي،
وسحب الخريف اللينة اللون مشرشرة الحواشي والحدود. داخل
دوار العمدة عند مروره على الزريبة، صائح وجهه هواء بارد مشبعاً
برائحة البهائم والطين.

العمدة كان ناشئاً. نوعه ما بعد الظهور، وما قبل أنان المغرب.
الخفير أكد أن الأمر خطير.

التأجيل قال الخفير: فيه ضرر.

الكلمات قبلت في إيجاز لم يكن من عابته. وكان العمدة قد خرج
في لباس يهتي من حجرة نوعه. فرك عينيه اللتين بدتا حمراوين من
نوم النهار. جلس ونظر إلى الخفير الذي وقف وراءه يبحث عن
الكلمات في ذهنه كي ينقل الأمر بخطورته كاملة إلى العمدة.

— للمأمور اتكلم بأحضرة العمدة :

— بتلثة؟

— قصدي معارف النقطة

— هو؟

— طبعاً.

أخذ الحديث بين الجالس والواقف أمامه شكل السؤال والجواب،
بكلمات قليلة تكامل الموضوع في ذهن السائل والمجيب معاً، بسرعة
أدرك العمدة المطلوب. الخفير لا يعرف القراءة أو الكتابة، لذلك
فالتعليمات كانت شفوية، جملة واحدة نقلها الخفير كما هي:

— الأمر عاجل جداً.

حفظها لأنها كررت عليه في التليفون أكثر من مرة، قبل المغرب.
كانت أربعة بتاتق تشعرك في الشارع الرئيسي للبلد على شكل
هرم: راسه للأمام وقاعدته للخلف. الهرم كان يبدو كالتلّي، شيخ
الخفير، وكيلة، ورأهما أثنان من الخفير. الوقت هو وقت عودة
الفلّاحين من حقولهم، وأرض الحوارى تشن وتأوه تصت أقدام
الحيوانات بحوافرها الحديدية. في يد شيخ الخفير ورقة بها أسماء.
أمام كل اسم، خانة للتعنوان وأخرى للتوقيع. خانة التعناوين كانت
بيضاء. فشوارع وحارات القرية بلا أسماء، والبيوت ليست لها
أرقام. والكل يعرف البلد ككف يده على اللصاطب. تهاسر الرجال،
دار الكلام كسولاً بطيشاً، خرج من الأتوة الخائفة غير واضح
ولامحدد.

— سحبوا الرديف الليلة.

نهر من الأسئلة والتعليقات يزحم جو اللصاطب. وفي صحن

الجامع، وأمام دكاكين البقالة.

— الرديف والأحتياط.

— الاثنين وأحد.

— لا فيه فرق.

على أبواب البيوت كان موكب الخفير يتوقف، تصفّق الأيادي،

تخرج من بين الشفاه نداءات معروفة:

- يا سائر، يا أهل الله.

تطل عيون نسوة وبنات وأطفال، الكل في ملابس البيت. أول ما تشاهده العينون الهندية المعلقة في الكتف المغطى بهالطو أميري أصفر، ثقيل وخشن، وتجرى نحو الداخل، بعد أن تخط الباب في وجهه، وتعود. ويبدو واضحاً أنها ارتدت ملابس تظهر بها أمام الرجال الغرياء.

البيوت كثيرة، والأسماء مختلفة، والشبان لم يكن وقت وجودهم في البيت قد حل، فهم أما في الحقول، أو عادوا منها وذهبوا إلى المسجد للصلاة، أو وقفوا على رؤوس الحواري أو أمام الدكاكين في انتظار أنان المغرب.

التنبيه وأحد بالنسبة للجميع، شيخ الخفر بنفسه. كان يقول:

- لانا لازم بسلم نفسه في المركز.

- امتي؟

- الليلة... يعني بعد ساعة.

- وما يتفعش بكرة؟

- لا.

- المركز... المركز.

- مكتب التعبئة.

- إيه.

- التعبئة... التعبئة.

تدور الكلمة في الأذهان، يحاول البعض لو أن يفهمها، البعض الآخر يطلب من شيخ الخفر، أن ينطقها مرة أخرى، فهي الكلمة الوحيدة التي تخرج من فم بلغة أهل المدارس والأندية وسكان البنادر البعيدة، شيخ الخفر لم يكن يجد صعوبة في نطقها بشكل سليم، على كل الأجواب، كانت تزحم الهواء عبارات وتساؤلات وكلمات متناثرة من الأفواه، بتأثر معها ذلك أهل الوجوه.

- ليه خير؟

- الأوامر كده.

- هو فيه حاجة؟

- أوامر الحكومة.

- ياترى جابرجوا امتي؟

- العلم عند الله.

- يا أبني لسه طالع من شهر.

شيخ الخفر، كان ينهي الحديث بكلمة فاصلة:

- الأوامر هية الأوامر.

ينطلق لسانه بعدها، في ذكر أنواع العقوبات المختلفة لن لا يذهب الليلة إلى المركز. سجن، غرامة، إلغاء حياة الأرض، حرمانه من عضوية الجمعية الزراعية. شيخ الخفر يؤكد أن هيئته هي هيئة الحكومة نفسها. ولا مانع لديه من إرهاب الناس، وتخويفهم في كل لحظة. وعندما كان يبدأ في ذكر أنواع العقوبات، كانت الأيدي ترتفع في وجهه. وهو في منتصف حديثه، تقاطعة:

— خلاص رايحين، بلاش كلامك ده.

أئن المغرب، سمع شيخ الخفر صيحة الأطفال «المغرب اذن اقطر ياسايم» فنقلت الحوارى من النام. واصبحت البلد شبه مهجورة. قرر أن يكمل جولته، حتى آخر البلد، وبعد الأقطار يمر على العزب والكفور، المتناثرة حول البلد، عزمت عليه أكثر من أسرة.
— أنت صايم ياراجل.

ارتفعت يده إلى صدره ورأسه علامة على الشكر. أحد الرجال استوقفهم، ودخل منزله، خرج ومعه شراب بارد
— غيروا ريفكم بس.

كلما تقدم السير، بدأ الليل أكثر تأكيداً، وأصبحت قراءة الكشف عملية صعبة، فى دابر الناحية، الشارع الذى يدور حول البلد كلها على شكل حزام، كانت المهمة سهلة نوعاً، اعمدة النور ترسل الضوء الكافى للقراءة، فى الحوارى الضيقة، كانت مساحات الظلام تبتلع كل للثرىات بناخلها، القراءة كانت ثم من خلال حزمة ضوء خارجة من شاذة أوياب، أو على السعة كرة من الضوء الأصفر المتراقص المنبعث من عود كهربيت. اشعل أحد الخفراء، وتظل الكرة تصفر، ويبهت نورها حتى تطفئ، بعد كل بيت كانت يد شيخ الخفراء، تمسك بهقها فلم كوبيا، ضاع طلاؤه الخارجى من كثرة الاستعمال كى يشطب أسماء، ويدون كلمات أمام أسماء أخرى. كان يكتب مسافر خارج البلد، فى المستشفى، سيقدم كشف عائلة.

شعرب البلدة كلها بجدية الأمر، عندما انطلق بعد أنان العشاء ستاد، لف البلد. إن صوته يخرج من بين أصوات الأطفال، الذين يلعبون فى الشوارع، ينطق بأول كلماته:
— يا عباد الله،، جانا من نقطة بوليس.
يستمر النداء، والكل يستمع. إلى أن ينهى نداءه بالمعارة التقليدية.

— والحاشر يعلن الغايب.

ما أن ينزل يده من فوق حده الأيمن، حتى تحاصره آلاف الأسئلة دفعة واحدة، المتدائى ليس موظفاً، لا يقال عنه رجل حكومة، ولذا فهو يعطى نفسه الحق فى الشرح والتفسير والتحليل، وله وجهة نظر يقولها، أنه يقف على رأس الحوارى، وأمام دكاكين البقالة وفى التباحثات، لا يرد على الأسئلة، ويفسر ما يشرح تصوره هو للأمر:

— دى شجرة يا جماعة.

— شجرة؟

— هيجربوا استدعاء الاحتياط ونسبة التخلف.

— يعنى آيه هيجربوا.

ينطلق المتدائى، فى حديث طويل، ترد على لسانه كلمات جديدة على الأذنان تتعود سماعها من قبل:

— تسريح الاحتياط، خطة التعبئة، تجربة كل شهر، دقة عمل النظام، كفاءة الاستدعاء.

- وعرفت بأكله مئين.

عند هذا وتحرك المندائي. الكل مشغول بما قاله. أما المندائي نفسه، فهو معنى بأمر آخر. أنه يندائي في شوارع مضاعة. من قبل كان يعوم في بحار الظلام. تخرجة حزمة ضوء صغيرة منها، ليعود إليها. الآن له ظل في الليل كما في النهار. أنه يسير وبعد عدد معلوم من الخطوات. يرفع يده. يقول نفس النداء. ويتوقف كي يجيب على نفس الأسئلة.

صلاة العشاء في المسجد. الحديث عن حكاية استدعاء الاحتياط، بعد الصلاة تحولوا إلى جماعات صغيرة، قيل كلام كثير في الموضوع. وراح الكل يعد على أصابع يديه، محاولاً أن يعرف عدد الذين سيذهبون إلى المركز من البلد.

في الشهرية. للسفر والفرار والتبعد عن الأرض والبيت والأهل حينئذ خاص. لانعبر عنه الناس بالكلمات، يجدون في الصمت والثروة والهروب. حيطان امان يستنون عليها قلوبهم المتأكلة، مر بالشهرية غرباء. مسافرون في الليل، قالوا عن قرى الناحية الأخرى. دمسينا، السوالم، دششتوا الانعام، نكلا العنب، الحال فيها واحد. فكبار والصغار تمدثوا، قيلت حكايات عن الجهادية والسلطة والجيش المرباط وأيام السخرة. وسنوات العسكرية الخمس التي أصبحت ثلاثة ثم سنة للمتعلمين. قالوا الكثير عن الرديف والخدمة في بلاد الندماء الحارة ومنذ الثلج والضباب. الشيخ عبد الله خطيب

المسجد كان موجوداً، ورقم له فوق الثمانين من العمر، إلا أنه أخرج حافظه نقوده. فتحتها ببسطه عبثت أصابعه بجيبها. أخرجت صورة تكسرت ملامحها، وتاهت معالمها. انصمحو برؤسهم ممراً للنضو. شاعدها، قال انها صورته، مد أصابعه، أشار بها، حاول أن يلتفت لتذلل لطربوش فوق الرأس، وثلاثة اشربة على الكتف الأيمن. وحذاء ضخم في القدمين. وفلاحين صوف يلف السائقين. والعيون تشكل حلقة من البريق، في الصورة رجل يقف كعمود النور الممتد فوقهم. ان حكاية الشيخ عبد الله تبدأ الآن. صوته يأتي هادئاً وادماً. كخزير المياه في الحقول البعيدة، يرق صوت الرجل وتسيل ملامح وجهه. وتصفو الحياة من حولة. التحكاية معروفة. شاب ريفي، نصف متعلم جند في الجيش، منذ أكثر من نصف قرن، كاد يصل إلى رتبة الضابط لولا.

تتحد بهم الحكاية نحو الماضي. حتى تصل إلى هوجة عراقى باشا. فيها سفرات إلى غابات السودان وجبال الحبشة ومن يركب سكانها الأفيال، يعودون من رحلاتهم على أجنحة الكلمات إلى حكاية التجندين أبناء البلد. كلهم جنود، فهم ضباط ثلاثة فقط. اثنان احتياط واحد عامل رتبة. صغيرة، فلا يزين كثيفة سوى ثلاث نجوم لامعة. .

موعد السجور يقترب، ولكنهم مازالوا في جلستهم، الحديث في مثل هذه الجلسات مثل موج الحر، الجايات أكثر من الراحات فيه.

والذاكرة تمنحهم عالماً من الحكايات والأصوات والأسماء والتواريخ،
فيمتد جبل الحديث.

في نفس الوقت، كان شيخ الخفر، يندق فوق باب دوار العمدة،
عندما قابله، خرج بخار من فمه، ففضح كلماته:
- تمام يا فتيم.

ثم التفتية على البلد كلها، ماعدا.

لم يرد العمدة، ذهب إلى الدوار، في حجرة السلاحليك جلس
على مكتب الخفير النويتجي بنفسه، أمسك التليفون وأداره يده، رد
عليه معاون النقطة، كان ساهراً مفتعجب العمدة. أعاد عليه الكلمات
التي سمعها من شيخ الخفر.

في النهاية الواسعة أمام الدوار، وقف العمدة ومعه شيخ الخفر
والخفراء ربا سلام أكثر من رجل مر عليهم، تطلع العمدة إلى
السماء. وشبك يده على صدره، طلب من الخفير التويتجي أن يظل
ساهراً بجانب التليفون، خطا نحو ناره خطوتين ثم توقف واستدار.
- تصبحوا على خير يا جماعة.

ردودهم أتت متتابعة الأصوات، تخدش صمت الليل :

- وأنت من أهله يا حضرة العمدة.

(٢) عندما ذهب مصطفى إلى المركز وعاد منه بملايس الجيش

في قريتنا أغنية قديمة، تقول كلماتها، ان كثرة الوازع. شرقي قلب
السافر. وتسلبه القدرة على مواجهة متاعب الرحيل، إلى التلال
تبعية. أسير الآن في طريق العودة إلى الضهرية، في ذهني تطن
كلمات أغنية الأهم العجوزة، راسمة عالماً بأكمله، لما سأواجهه في
البلد بعد قليل. . .

لأمسك بمقد حكايتي من أول حبات.

العودة من الحقل، مصطفى يتمهل في سيره. العين على القدم،
فأمامه تعترض الطريق قناة، تعكس مياهها ظل شجرة وجزءاً من
سماه رمادية، ثباتها، وقف على جانب الطريق واستدار بيده
وسوته علون بهائمه على تخطيها، وخلال استدارته، استطاعت
قدمه بطويه، وقعت في القناة فحككت مياهها وتموجت، واستطالت
الصورة وقصرت فوق مساحتها، عند مدخل البلد، من الناحية
البحرية، نادى عليه شيخ الخفر، وقف فوقفت بهائمه في غير
استقام. الأوراق التي في يده عرفها مصطفى، طلب استدعاء، أعطاه
الأسل وأخذ الصورة، طلب منه التوقيع بالاستلام أفهمه بضرورة
الذهاب إلى المركز الليلة، أو صباح الغد على الأكثر.
- وذاك على جيتك.

قالها وهو يسير مبتعداً.

رفع مصطفى عيشه، كان جلباب الشيخ أحمده فوق مخدنة المسجد، تعيث به نسمات الغروب . حاول أن يسرع في سيرة، البهائم كانت بطيئة، في البيت دخل الزريبة، تماماً مثل كل الأماسي، ربط البهائم، وضع العلف لها في المداود، أثناء خروجه من الزريبة، لغت نظره بطن الجاموسة المنفوخ، وبدت له قدمها الخلفيتان مقوستين من ثقل الحمل عليهما.

حول الثبلية، أمه وأخته والغزالي، شقيقة الأصغر، انهم ياكلون وسط صوت اصطدام لللاعق بالأواني والأطباق، وتشدق الاقواء بالطعام، قال بشكل عرسي:

.. انطلقت للعسكرية الليلة .

توقفت أمه عن المضغ، وأطل من داخل عينيها تساؤل مبهم، وتحول وجه أخته إلى علامة استفهام، في الأشهر الأخيرة، تعود ان يذهب إلى المركز، أول كل شهر، حيث يوقع له، في سجل معه، بالحضور، وكل ستة أشهر كان يذهب إلى وحدته القديمة، عشرة أيام للتدريب، كان هذا نظاماً متبعاً، بلغه بنقه، أمس كان يوم الاثنين، أول يوم في الشهر، ذهب مصطفى إلى المركز وعاد . . الأشهر الستة الثانية لم تثن عن بعد، وفي هذه الفترة كان مصطفى يحمل علامة خارجية فوق الجلباب، كان يلبس سترة كاكيه قديمة، فوق الكتف شريطان، كل من يشاهده، كان يعرف الحكاية يسأله على الفور.

.. طلعت من الجيش أمي يادفعة، انيك . .

أكمل طعامه، شبع وقال الحمد لله، غسل يديه، وأخذ كوب الشاي المعد، بدأ يتحدث، الصوت خافت والكلمات تبدو عادية، حديثه عن البيات الشقوى في الحقل، قلب الأرض، ربي البرسيم. تسميد أرض القمح، تنقية الحشائش من خطرين قول وخطين كرنب على رأس الحقل.

انزلت على لسانه أرقام، ماله وماعليه، حسابات الجمعية التعاونية، خرج وعاد أكثر من مرة، داعيهم وضحك معهم كثيراً، أخرج من جيبه أربعة قروش وأرسل نوره تشتري قصباً يتسلون به حتى السحور، أخذ وجه الغزالي بين يديه وداعيه، بعد السحور، ذهب كل واحد منهم إلى مكان نومه، خيم على البيت سمعت مشحون، لكن أحداً لم يزم، بدت الليلة بطول العمر كله، مصطفى ينتظر صيحة نيك، تنشر الفزع والاضطراب بين دبكة البلد كلها، . انتظرها، ولكنها تأخرت كثيراً هذه الليلة.

الصباح، الذهاب إلى العمل، تركه، التوجه إلى اهتاي البارود، سفر غاي، أمام المركز جمع من الشباب يعرف الكثير منهم، سمع اسمه يتنادى، تكرر النداء فجري، كتب اسمه أكثر من مرة في دفاتر مختلفة الألوان والأحجام، أعطوه استماره سفر، قاده واحد منهم إلى مخزن رطب معتم أخذ مهماته، المطلوب منه أن يسلم نفسه إلى وحدته في ظرف ٢٤ ساعة.

ركب السيارة النازهة إلى البلد - وهو في الطريق، نظر إلى الحفول، شربت عيناه خضرة النباتات وسمرة الأرض، ويزقة السماء، أحس براحة، شعر أن قلوب الجاف مدحون بطبقة ناعمة من الزبد، بدت له الضهيرة، كانت سحب الخريف المتناثرة، تتحرك في كسل، تكاد تلامس الحطب المنتشر فوق البيوت.

في البلد، ذهب إلى الحلاق، قص شعره، وحلق ذقنه وسوى شاربه، استحم بمياه نافذة، وبدأ يرتدي ملابس الدمشق. وجد نفسه مجبراً مرة أخرى على إدخال قدميه في بنطلون الأفرول . . ليس الشدة - شيك في كم سترته الأيمن شريطين، وضع الطاقيّة فوق راسه، ضيبتها ثم خلعها وأمسكها في يده وشعر بخشونه الجورب الصوف على ساقية، ويثقل الحذاء الميري الأسود في قدميه، وبصوته عند المشي على الأرض - الفلاح أصبح في غمضة عين العريف مصطفي. للجندى في بيوت الريف رائحة خاصة، لون ملايسه، نعومة جلد ذقنه، شعره الذي لا يبدو من تحت الطاقيّة الكاكي. ملايسه المفسولة المكوية، وهو لا يشاهد بهذا الشكل - إلا مرتين، لحظة قدومه في أجازة أو سفرة إلى وحدته.

وقف أمام أمه، لم يتكلم، كانت أصابعها تتحرك، بشكل لا إرادي، كأنها تضرب على لوهر خفية، لحناً صامتاً من الخوف والرهبة والحب، لحناً لم يسمعه أحد.
- مسافر يا بني.

- إن شاء الله.

لكمل:

- خللي بالك من زرعة الشتاء.

أوصاعها بالحقل، على أصابعه عد ماقية، حوض الجرسيم البحري، يحتاج كيماوى مع الروية القائمة، أرض النقص تندر مع المناوية، الفول مطلوب عزقة وتنقبة الكرويت لايد من اخلاء الأرض منه، تمهيداً لزراعتها خبيزة مع الشتاء.

الصمت بينهما يحتوي بداخلة سيلا من الكلمات والمعاني الدافئة، شملهما هدوء مستتب، لقد بات وقت العصارى مسموعاً. انهما يسمعان خشخشة أوراق الشجرة العجوز القائمة أمام باب البيت، وخفيف أجنحة الطيور - ارتعش القلب، وعلى طرف لسان كل منهما، كانت تقف كلمات وقصص وحكايات، ولكنها لم تخرج، قبل أن يتحرك، اقتربت منه أمه :

- اقتر وبعدين سافر.

- للتواعيد، سفر الليل صعب.

تشابكت الأيدي، في المرة الأولى لسفر مصطفي، في الزمان القديم. اكتشفت أن طفلها قد غدا رجلاً دفعة واحدة، في العينين طقولة، ولكت فوق ملايح الوجه بدت خطوط الاعياء والاجهاد ورعشة اللقاء مع المجهول، وفي أصابع اليدين، بدت خشونة الغاس والمحراث تنوب مع الماء الدافئ والصابون، نظرت في وجهه طويلاً.

أبركت. وبما لأول مرة أن في مصطفى الكثير من الله. أنه هو:
- الخالق الخالق.

سكنت في نظراتها عواطف وحديث صامت وكلمات، قالت له،
وبسمة غريبة ترقص على ملامح الوجه:
- فلكر سفرك أول مرة.

هز راسه ومن قاع خياله. رأى امرأة أخرى، بها قدر من الجمال،
كان الأب موجوداً. وكانت شابة. وكنت طفلاً. الغزالي كان قطعة لحم
حمراء، يود جزء منها وسط اللقائف ويده تعبتان بالهواء بلا هدف.
أو. كانت أيام.

الرغبة في الحديث تحرقه. يود أن يقول الكثير ابتلع كلماته. هي
أيضاً صمتت. ولكن في لحظة ما لا يدري أحد متى تأتى هذه
اللحظة. ستفرض نفسها رغماً عنهما. وسيفتران لبعضهما بعضاً
هذا الصمت الطويل للمفعم.

الرحيل هذه المرة له طعم. جاء ميكراً كالفرخ البكر الذي يطير
من العش قبل الأوان. تفوح من فم مصطفى رائحة الصيام. للغرب
لم يمن بعد. طريق السفر سكة في الخيال. ولكنه طويل، أمه تطلب
منه التوقف. في غرفة المعاش، غزلت مما وجدت حجاب حب. لم تكن
تدري ماذا تفعل، قرنت ورقة مبقعة، وضعت عليها كل ما وجدته،
وتذكرت السنوات السابقة، كان مصطفى يطلب منها أن تذكر من
كل صنف، فزملأوه بالخيمة يأكلون معه.

سلم وسار، الحارة، دابر الناحية، البيوت والدكاكين والناس. كان
عليه أن يسلم ويتكلم، ويجيب على الأسئلة، الهواء خزيني ناعم،
والسماء نهر من الزرقاء، في اليد اليسرى ورقة ملفوفة ومربوطة
بذوئارة، وفي اليمنى طاقية ومفتاح، الطريق هو نفس الطريق.
ولكن الشاب تغير كثيراً، من الحمامات التي يعمل بها، استدارت
عيناه، بحثتا عن مكان حقله، لم يستطيع تمييزه، اصطدمت وموش
العين بخط الأفق البعيد، وللخريف لون وصامص منطلق، ينتشر
في كل الأكوان، يمتص بهجتها وتميزها، هدوء الغسق اقرب إلى
انتموم، حين مصطفى إلى الحقل والزرع والترعة يذيق انقراض، قبل
عودته بالأمس من الحقل شاهد نبات البرسيم، أعوانه شقت
الأرض، كان لعناق الأخضر والأسمر، شكل راعش. القمع لم ينبت،
هجم البرد على الحقل. وأن كان وجهه لم تلبث قطرات مطر هذا
العام بعد شم رائحة الأرض الشراقي في انتظار المياه التي تنقعه
لغداً.

نظر خلفه، لم يشاهد لنظرة الطويل نهاية، وعلى آخر الشوف، لم
يكن يبدو من الجسر سوى دوائر القبار التي كانت تثيرها السيارات
في الذهاب والعودة، اقتراب من الجسر، شاهد زملاءه، الكل في
الانتظار. رفع يده، ظلل بها عينيه، ذكره المنظر الذي يخرج من أشعة
الشمس الصفراء الباهتة بسنوات الجندية، فهتف لنفسه في صوت
خافت:

- والله زمان -

اقترب منهم على مهل، على الجسر الحديدي خيط قدميه، نافضاً
عنهما التراب العالق بهما من الطريق الترابي الطويل. واصل سيره،
رفع صوته:

- السلام عليكم يا رجالة.

ترك ما بيده على الأرض، وليس طاقته. وأقبل على الواقفين.

- وعليكم السلام ورحمة الله

تمولوا إلى دائرة، الصدور أبداً متشابكة والأفواه تتحرك
بحماس وفرحة، والعيون تدور في المعابر بسرعة، الكلمات تبدأ
لغائرة، ولكنها تشتعل من بعضها، انهم يتكلمون، وللحديث مفردات
مختلفة، حضرة الصول، الشاويش البفعة، أسماء جديدة تطل
عليهم، الموضوع، متاعب السفر، آلام الفراق، وتغنى العودة إلى
البلد، الجيش وحياة العسكرية، الذهاب إلى المعسكرات ليلاً، وربما
التوجه إلى الميدان، والموتجات، استعانة النشاط، العودة إلى حياة
النسب والربط والطواير والناورات وليالى الخدمة والتنويعية
والسهر حتى الصباح.

خلال الحديث سأل كل منهم الآخر عن طريقه، وانفراط عقد
الجماعة، إلى جماعات صغيرة، العيون معلقة على نقطة في الأفق
البعيد، حيث تخرج السيارات القادمة من وسط الأشجار والحقول
والغابات الطريق، الكلمات ثقيل متباعدة كسولة، مساجات الصمت
تطول، الفتور يعلو الوجوه.

إنه الانتظار.

(٣) النار تشتعل ، الماء يغلي ، الغزالى

ونورة، يحاولان الغناء ويشعران بمشاعر غريبة

بدأت لحظة الوداع هكذا، مصطفى أمام أمه، الوجه في الوجه،
العين مغموسة في العين، نورة مبتعدة والغزالى يقترب من أخيه،
يبدو ضمناً بين الأقدام:

- مصطفى رايح فين ؟

- مسافر.

- فهن ؟؟

لمسكتة نورة من يديه:

- الجهادية.

وجه الغزالى محاط بطريقة رقيقة من الأشياء التي لا يفهمها.
وعند سفر أحد من العائلة لا يكون للغزالى هم سوى أن يطلب
الحقير معه، لا يدري عن السفر إلا أنه ذهب إلى الجسر وانتظار
وركوب سيارة تسابق الريح، تشبث بمصطفى.

- خذنى معك.

هوت يد عليه أمه، تصنيفه على السفر، جعله لا يشعر بالهم
الصفعة، مصطفى نظر إليه، قال لأمه. إنها مسافر إن معاً، نظر في
عينى أمه نظرة طويلة، قالت العيون من خلالها ما لم يفهمه

الغزالي. على عتبة الدار جلس مصطفى، وطلب من له أن تدخل
 اثلبس الغزالي ملابس السفر، فالجلباب والقدم الخافي لا يصلحان
 للزنازير البعيدة. تاباطأت أمه، سحبت إلى الداخل، استعجلها، شتمها،
 هجم عليها، ركلها بقدمه الصغيرة في بطنها أثناء ارتداء ملابسها،
 اكمل ارتداء ملابسها، عند حضوره كانت عتبة الدار خالية فهم
 الغزالي سر النظرة للثانية التي تبادلها مصطفى مع أمه. وأدرك
 أنهما ضحكا عليه، بكى، جرى، ثورة أمكنة، حملته على صدرها
 قالت له، أنه رجل البيت الآن، الوالد يرفد في القابر قبلي البلد. الأخ
 الأكبر ناداه صوت المكن في كفر الدوار، ومصطفى، أخر الدبوك
 هجر العش اليوم.

في لقاعة القائمة في قاع الدار، المطعونة بمساحات الظلام، خلق
 الغزالي ملابس السفر، في ذهنة الصغير والبسيط كانت آلاف
 الأشياء المعقدة والمتشابكة، الغير قابلة للفهم تدور حول نفسها،
 خرج من القاعة، في وسط الدار، كانت نورة تجلس أمام الكانون،
 تشعل النار تحت إثناء ضخم، جلس بجوارها، فهدت له لجمال يئات
 العالم كله. اقترب منها، حتى التصق بها، رفع يده وأمسك ذقنها
 وأبار بصرها ناحيته، ثبت عينيه في عينيها وأحار ماذا يقول، تلعث
 وهربت منه الكلمات، ولكنه اهتدى إلى سؤال، كان يود أن يعرف لم
 ينتم الأب قبلي البلد، ومتى يقوم من رقده؟ ولم يقيم أخوه الكبير،
 والذي كان يظنه والدهم في كفر الدوار بمفرده؟ وما السبب في سفر
 مصطفى للفاجيء إلى الجهادية؟

أخر الأسئلة كانت:

— وأزاي أبقى راجل البيت وأنا . . .

سمعت نوره مقالته كلها، خبت النار داخل الكانون، فمدت يدها
 برفق، وأنزلت أصابعه الصغيرة، المحيطة بذقنها، استمرت واقتربت
 من فم الكانون، تحول فجأة إلى كرة، جلد الصدفين مشدود على
 أخره، والفم دائرة صغيرة في حجم حبة التوت، استمرت تنفخ النار
 حتى طلق الحطب واشتعلت النار وكركر الماء من الغليان، أن غطاء
 الأناء يتراقص في هبوه ونعومة، وإثناء تحركه، فإن كتلاً من البخار
 الأبيض تخرج، اقتربت نورة من الأناء، رفعت الغطاء، نظرت
 بداخله، تأملت ملامح وجهها في شباب أبيض، أعانته إلى مكانه،
 فلنقطع البخار ومن البخار خرجت له ملامح وجه أخته، على رموش
 العين تعلقت قطرات الماء، الوجه إزداد احمراراً وحلاوة، قرصها
 الغزالي في يدها، فتذكرت ما قاله، هي نفسها لم تكن تعرف،
 سنوات عمرها ضعف سنوات عمره بالتمام والكمال، لم تذهب إلى
 المدرسة، ولم تخرج إلى الشارع، أخر حدود عالمها، البيت بمحجرات أو
 الحقل بساقيته وأشجاره، شاهدت نعش الأب يخرج من يتوهم ذات
 صباح، في الحارة رأت صفين من الرجال يجلسون مستندين إلى
 الحائط في صمت، الصفان لم تكن لهما نهاية، ومع امتدادهما كان
 الرجال يتحولون إلى نقط صغيرة باهتة، رأت، أخاها الأكبر مرة أو
 مرتين، يقال إنه يعيش في كفر الدوار، له بيت وأولاد، وأنه ينام على

سوير من النحاس الأصفر الأصلي. وأن زوجته من بنات البشار،
 بيضاء وسعيدة، وعينها سوداوين ملفنجاتين. لاتعرف عمله. يقال
 سائق أو رئيس عبور. رحل اليوم آخر رجال البيت، لايدري السبب.
 الباقي علمه عند الله. نظرت إلى الغزالي، احتارت ماذا تقول له:
 - لما تكبر تعرف كل اللي يتسأل عليه.

خبط الغزالي يده على الأرض بجانبة، بخفاد صبر، توقعت أن
 يسألها، سؤاله القديم. متى يكبر، ومتى يعرف، الحديث عن
 مصطفى يعود إلى الشفاء:

- مصطفى خذوه الجيش؟

- ليه؟

- ازاي؟

- الحكومة هابزه كذا.

- هو الجيش فين؟

السؤال والجواب كالكرة بينهما، ذكرته بالسنة الماضية، أيام أن
 كان مصطفى كالضيف، يأتي كل شهر ونصف خمسة أيام فقط،
 يسافر بعدها، ثم عاد ليعش بينهم. أمس فقط طلبوه:
 - كلها عشر تيام ويرجع.

على أصابع يدها بدأت تعد الأيام العشرة، حددت يوماً بعينه،
 سيعود فيه مصطفى، لم يترك الغزالي كل ما قبل، شعر بخوف
 غامض، صمت، وبدأ خياله يهبط بالكلمات والصور. مصطفى في

الجيش، مستقبل حياته الجديدة. سأل لماذا لم يأخذه هو بدلاً منه؟
 قالت أخته: أنه مازال صغيراً، أمامه عشرة أعوام حتى يختم في
 المركز تحت الطب، بعدها إجراءات طويلة، قالت له الكثير، كل ما
 قالته كان تصوراً سائجاً لحياة المعسكرات. استشهدت فيما قالته
 بكل ما سمعته من مصطفى بعد عودته من العسكرية، الكلمات
 تنزلت من لسان نورة، لتسلم الغزالي لمناهاة واسعة. اقترب منها،
 وضعت يدها على راسه عيشت أصابعها بشعره، أحس بنفخ
 الأصابع فوق جلد راسه، فإقترب وطلب منها أن تغني له. اشارت إلى
 الكانون وتارة التي هدت. بدأ يكوم الحطب بيديه، حاول أن ينفخ
 الهواء، فمع كان صغيراً، أمسك بطرفي جلبابه، حركهما، بأعنا
 بهماالهواء. مع صوت النار وهي تشتعل وطققة عيدان الحطب
 بدأت نوره تفتي وسيل صوتها العذب في أذنية. كأحلى ما في هذا
 العالم الكبير. الأغنية كانت كلمات جندى. يطمئن بها قلب الأم قبل
 السفر.

- اياك يا أمه تيكى.

في البابور مفرفشين.

- اياك يا أمه تيكى.

في الخيمة متجمعين

وإن مت يا أمه أبعثي

ابراهيم وبعده سماعيل

انصبت لها. وماذا الخوف يدور حول القلب، أعجبه الصوت،
تندبح، شرب قليلاً من الماء، لمسك زوره، اقتراب من أخته، انطلق
صوته معها، ركز عينيه على عروق رقبته المنتفخة، ورفع يده إلى
رقبته. عروقة كانت أصغر من أن تشعر بها أصابعه. خرج صوته
خجولاً متقطعاً. وبدا له التهاب الخارج من فوهة الكانون، بصيصاً
من الضوء في عتمة كبيرة، توقفت نوره عن الغناء فوجد نفسه
يغنى بمفرده، شعر بخجل حار كشمس بزوره، فتوقف وغطى
وجهه يديه، وخبط أخته برأسه في صدرها، كور يديه وبدأ يضربها،
ضحكت، أبعدهت برفق، كانت قطره دموع عكورة تجول في مآقيها،
رفعت ذيل جلبابها ومسحت به عينيها، أنها تنفخ النار من جديد،
انغزالي يتجه نحو الباب. قرآن ما قبل الأظفار يأتيه من مكبر صوت
معلق فوق الجامع القريب. وبين الأيات كان يصله زفير مكبر
الصوت واضحاً. طبلية الأظفار تتوسطهم، انغزالي لا يهضم
رمضان. ولكن جلوسه للطعام يسبق الصائمين أنفسهم، لاحظ
الثلاثة خلو مكان مصطفى، انتظروا حتى لامس آذانهم صوت المؤذن
ينطق بالشهادتين.

لم شتت الأيدي للطعام. العيون الستة، ارتفعت، نظرت إلى أعلى،
إلى دائرة صغيرة تطل عليهم من سماء خريفية صافية عميقة
الزرقاء.

- روح يا ابني يفتحتها في وشك.

ويجعل لك في خطوه سلامة.

كلمة والثانية وتهدج الصوت. الأحرف تخرج من الفم هشة
متأكلة. الوجه غابة من التجاعيد، الأنفعالات التي فشلت الأم في
السيطرة عليها، جفرت أخنوداً عميقاً يمتد من العين إلى الرقبة،
وخلاله انزلقت أول قطرة دمع. انحدرت بسرعة، شركت خلفها
مجرياً لامعاً، بدأ لغاته وسط رمادية المساء الذي بدأ يهبط عليهم في
ذلك الوقت.

الغزالي يرفع يده نحو السماء، هكذا يفعل الرجال ساعة الدعاء
في المسجد، شفتا نوره تتحركان بشكل لا إرادي، الغزالي يحرك
شفتيه، ويفهم الأمر كله على أنه دعاء من أجل مصطفى الذي
يشاول افطاره الآن في مكان لا يعرفه. دعاء الأم يتحول إلى نغمة حب
واشتياق وخوف، بداها تقتربان من الوجه، تلتحم أصابعها بالأخايد
والتجاعيد، فيبدو جزء من الوجه، تسمع بهما عليه.

في صمت تناولوا الأظفار. في الأيام السابقة، كان مصطفى
يشجع جواً خاصاً حول الطبلية، حديثه عن الحقل والمبيدات
والمحاصيل والبهائم ووظائفه الجديدة، سرعته في الأكل، أخبار
البلد، حكايات الناس. تذكر الغزالي أن أخته قالت له أنه أصبح رجل
البيت. حتى يعود مصطفى، فتوقف عن مضغ لقمة كانت في فمه،
ورفع رأسه، وفعل كما يفعل الرجال في مجالس الصمت:

- وحدوه.

لم تستمع لإنشاد، هدير انساني، اقرب إلى التمتعة، يؤكد أن لا له

إلا الله. نظرت إليه أمه نظرة مستسلمة واستمرت جلستهم. ككل جلسات الليالي السابقة الأكل، شرب الشاي، حضور شباب البلد، استقاء مصطفى، الكثير منهم لم يكن يعرف سفره. السؤال عن أسباب السفر ووقت العودة. وقبل أن يعطيهم الشاب ظهرة ناعية. كان يعرض خدماته ونقوده القليلة ووقته وجهده.

- مصطفى أخويا.

صوت رشقات الشاي للتبادل بين قم ثوره وأمها يبدو مختلفاً بأصوات رمضان، ثلثي من الدور الأخرى والحارة. الأم تحدث نورة:

- بكرة لازم.

الحديث عن أعمال لا بد أن تتم في الحقل. رى وعزق ورعى بنور ورش كيماوى ونقل سعاد. وبعض هذه الأعمال لا يقبل التأجيل يوماً واحداً.

سمعتهم قالت نورة. يتكلموا عن الحرب الليلة.

رمشت عيناً الأم، قطعت عوداً من الحصيرة التي يجلسون عليها، لكي تنظف به أسنانها، بعد طعام جاف خال من الدسم واللحوم. وسوت العود، وقربت من عينيها، ومدت به يدها إلى قفها.

قالت والعود بين أسنانها:

- كله بانته.

(٤) مسألة السفر في رمضان، والافتطار في الطريق والعموم في بحار الكلمات مع الأصدقاء القدامى

في الموقف، انتظر طويلاً، هبت من ناحية الجنوب نسمة هواء باردة، فوضع يديه في جيبى لثروله، شعر بالثغرة لدى ملاصقة أصابعه للأفروال، ضحك وتكلم كثيراً. اقترب منه أكثر من رجل كانوا يقفون في الموقف، البعض على سفر مثله. والبعض يسلى صديعة، الأصهيل وقت تطول فيه الظلال حتى تصبح خطوطاً نحيلة ممسوكة، تتعرج على الأرض. وفيه يكبس على الضورية ومن لنيد.

اقترب منه أحد تلاميذ المدارس:

- أهلاً.

صافحة، ولكن الحارب القديم، يتعامل مع عالم بصمت جياش زاهر. حضرت السيارة، وقف على رفرعها الأيمن. هبت عليه رياح باردة، فوضع ما معه على سطح السيارة، ومن فوقه كان ينسل بحر من الرزقة. سارت العربة، الحقول والأشجار والناس تبتعد، خط الأفق البعيد يدور دورة بطيئة مركزها السيارة. في الغرب قرص الشمس أصبح نحاسي اللون، يصبق نوراً باهتاً، نصفه غطس تحت الأفق، والنصف الآخر يبدو بلونه النحاسي للشع في الشوفاقيه. تكرر الوقوف وضع يديه في جيبى الأفروال وراح

يتعشى. وركب السيارة من جديد، هذه المرة جلس بداخلها، في الطريق. أين المغرب، عرف ذلك من ساعة راكب بجوارفة، وأكنته له حوارى قرية مرت عليها السيارة. فبدت خالية مهجورة من الناس. فى كفر الزيات، كان عليه أن يفطر، اتجه إلى مقهى صغير جلس عليه، أخرج طعاماً من ورقة كانت معه، جلس ياكل، امتدت يده إلى الطعام، شعر بنظرات الآخرين كابر تنفذه فى جسمه، فتذكر نعمة الستر والبيت والجدران الأربعة وأمه، كان ياكل بمفرده، المغرب فات وقته، أسرع فى أكله، توقف عن المضغ، قال لنفسه:

– بلوقت بيشرهوا الدور الثالث من الشاى.

بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، قالوا له، اذهب إلى البلد، سيوصلك خطاب التعيين فى وظيفة حكومية. ثمانية سنوات قضاهما تحت السلاح، كما يقول أهل الضميرية، فى البلد، انتظر اسبوعاً، فى كل صباح كان يرسل الغزالى إلى مكتب البريد، يسأل عن خطاب باسم مصطفى.

– لا يا أبنى.

تكرر ذهاب الغزالى قسالة وكيل مكتب البوستة:

– آيه الحكاية يا ولد؟

تشعلق الطفل بالمكتب، حتى شاهده الرجل، السؤال ظل معلقاً، فالغزالى لم يستطع الرد، ذهب مصطفى بنفسه إلى المكتب، تذكر وهو سائر، أنه ذهب إلى العسكرية لأول مرة. وفى ذنقه شعيرات

متناثرة، لم يجر الموشى عليها. عاد وقد أسود جلد ذنقه من غزارة متابت الشعر فيه. طريقة سوره تؤكد أنه أصبح رجلاً. مصطفى لا يشاهده أحد كثيراً خارج البيت. هكذا حال كل الذين يعودون إلى الضميرية بعد فترة غياب. يلوثون بالدور، خجل ما يمنهم من الظهور فى الحوارى والشوارع. مصطفى نما جسمه، يكاد يخرج من جلباب قديم يرثيه، فى المكتب، سلم وجلس، تنقلت الكسكس بين الرجلين، فهم مصطفى بعد جهد، أن خطاب التعيين، سيرسل إلى مكتب التجنيد فى المركز، وتردد على ابتائى البارود عشرة أيام. فى كل مرة كان يسأل عن خطاب التعيين، وهناك كانت أنناه تسمعان رناً قديماً من قم رجل عجوز.

– قوت بكرو.

بين السؤال والجواب، أخذ وعطاه، شرته عابرة، للوضوح واحد، الوظيفة التى سيحصل عليها من الجيش، أكد له الرجل صعوبة الحصول على وظيفة.

– معاك شهادة ؟

– لا.

– قبل الجيش كنت.

– مزارع.

– فهمت.

أنهم الرجل، ستعطيه الحكومة لرأساً.

— تأجير وإلا تملك.

تأه رد الرجل وسط ضوضاء أصوات كثيرة، الأيام اكثت عكس هذا، ذات مساء حضر خفير ثبه عليه بضرورة الذهاب إلى المركز، ومن نفس الرجل العجوز تسلم خطاب التعيين.

— خفير على الحمامات العمومية، ومرافقها بالضرورية

كفر الزيات، طنطا، بنها لم تكن آخر المطاف، الطريق لا يزال طويلاً، في محطة بنها قابل زملاء الأيام القديمة، صافحهم، اكتشف أن يده خشنة ومشققة، مغطاة بطبقة من القشر الجاف، مثل أرض شراقي تطلب الماء من فترة طويلة. رمى نفسه في أحضانهم، شلال الكلمات يكون جسوراً من الألفة والمودة.

— وحشتوني.

— أنت أكثر

الكلمات اللاهية عن الحال بعد التسريح من الخدمة، السؤال للتح عن أمرين، الوظيفة والزواج، مصطفى يعد رب أسرة، شقيقة الذي سافر إلى كفر الدوار، لا يحسب، زواج مصطفى مؤجل، حتى الآن، لم تدخل البيت عروس، هذا الأمر يحزن أمه.

تذكرات السنوات الماضية تعود، عقد الحكايات القديمة ينفرط، كحبله مسبكة طويلة، بطول العمر نفسه، الضحكات والبسمات ترقص على الشفاة، الكلمات ترسم مواقف حدثت لهم، لم ينسها واحد منهم، سألوا عن موعد القطار الذهاب إلى الجبهة، اكتشفوا أنه

تفصلهم عنه ساعات ثلاث طوال، اقترح أحدهم أن يتمشوا في شوارع بنها تضيئها للوقت، الجو معطر بذكريات وحكايا جميلة، مصطفى يسير معهم، رأى امرأة تجلس على أحد الأرصفة، فذكر أمه، تعجب من أمره، كم تبدو أمه نائية عنه.

سأل أحدهم:

— إنما أیه اخبار الاستعداد.

رد واحد.

— اختيار كفاءة.

— أیه.

— كفاءة نظام التعبئة الجديد.

في وسطهم شاب متعلم، مد أصبعه، أراح بها نظارته على

منظاره:

— لا دى متاوره، حاتبدأ الساعة ٦٠٠ الصبح لغاية يوم الخميس.

— يعنى بعد بكرة.

— تمام التسريح يوم الجمعة

اكمل واحد منهم:

— علشان تروح مصالحنا الحكومية السبت صباحاً

حاول أحدهم أن يشحك:

— دى اللي دخلت منك.

في القطار الحربي عثر مصطفى على مكان خال بجوار النافذة.

جلس، تحرك القطار، أسند خده على يده، انزلت نسمات هواء باردة على وجهه، اغمض عينيه، شعر برغبة في النوم، صوت اصططام عجلات القطار مع القضبان انتظم في أذنه. الظلام مستتب أمام العيون. من خلال العتمة، حاول أن يرى أعمدة التليفونات، ولكن الظلام كان شاملاً. في داخل العربة، كتلة الأصوات. الكل يتكلم، الآن لا تستطيع أن تلتقط حرفاً واحداً مما يقال. مع شلال الكلمات، رائحة دخان وأطعمة وملابس جديدة وعرق رجال، وسط عناق الضجيج مع صوت القطار، ارتفعت يذنقرت على خشب المقاعد. الدقات تبدأ وتيرة، غير منتظمة خافتة، يحاول البعض أن يستمع. الدقات تعلو، يخرج من الضجيج وصوت القطار لحن، يغني أحد المسافرين، الكلمات من مصر. يبدو أنه يرتجلها، تبدأ كلمات الأغنية مع خريطة مصر. من الشمال، بلاد الأيام الباردة وسيول الطر.

يا الاسكندرية... يا

والمرسى أبو العباس... يا.

والخضرة... يا.

والمنيرة... يا

الهبوط جنوباً، عكس اتجاه النيل، الطواف بكل مآثر العين، الأيادي تصفق مع الدقات، الحناجر تغنى معه، يبدأ الصوت هادئاً من الكل. ومع كل كلمة جديدة يرتفع الصوت. الأغنية كلماتها

خشنة، تنور منسقة ولكنها تتحول ببطء إلى وسادة ناعمة من الحرير يرتاح فوقها للغنى كي يمسح عرقه. حال الظلام دون رؤيته، صاح لأحدهم:

... فن عشان نشوفك.

الفناء من جديد، الأغنية تحكي عن جندى، ودع أمه الفلاحة، وكتب الحصان الأخضر، ونزل إلى الميدان كان وحيد أمه. أبوه مات منذ سنوات. قدما الأم لم تعرفا أى مكان سوى بيتها، الجندى يحكى لأمه مآشاهده في السفر والترحال في بر مصر. يقول إنه لولا العسكرية، ماصعد مع النيل إلى الشلالات ولا هبط معه حتى نساء الشمال اللينة الجميلة. تصف الأغنية أرضاً خضراء وصحارى جاثية وسط أنهار الخضرة، وتنمى من الكلمات عيون مفتحة، ترك الابن عندنا قلبه وديمة، دون أن يحصل على اتصال يسترده به. كان يحدو وهم يردون وراءه، وعندما كان يتوقف، فإن الذبكات تتطلق. عن أهل مصر. قالوا مائة ثوبى ولا واحد بمنهوى. وقف أحدهم وصاح في الظلام، سالهم: ان كانوا يعرفون كيفية اكرام الصيف، من طعام وتسلية وتوهم. وهو وجماره بقرش صاغ واحد، اعترض صوت بأن ذلك كان في زمان الرخاء القديم. أضاف آخر. بأن هنا يحدث في دمياط فقط. تحولوا إلى مجموعات صغيرة. التعرف بالصوت واللمس وشم الرائحة وسط الظلام، وأبطأ القطار من سيره، وقف، أطل أكثر من واحد من التوافد، غمس وجه الظلام

وعاد ليقول ان القطار امامه تصليح في الطريق، ولكنهم عندما توقف القطار تماماً، سمعوا صوت فرملة عجلائته على القضبان، واهتزوا جميعاً، وتكلموا فوق بعضهم، انكروا لها نهاية الخط.

وقفوا على الرمال، اشواء بطاريات حمراء اللون تشير إلى الطريق والوحدات. لسان من الضوء الأحمر يعبر الوجوه بسرعة. وخلال الاثوري لا يبدو من الوجه غير عين أو أنف أو فم. ويعبره الضوء. حاول مصطفى أن يعثر على زملائه القدامى. ولكنه اكتشف ان الأشهر العشرة اثابت ملامحهم الخاصة. سلكوا أحد اقوال الشرطة بكلمات قليلة، أحيا في أذهانهم طويلاً سبق أن قطعوه في قهقار الصحو والليالي المثقلة بمكعبات الظلام. ساروا، بنت الجبال مساحات من العتمة، هبت ربيع خريفية شموأ فيها رائحة الشتاء المقبل. حملت معها ذرات من الرمال: فأحس بها مصطفى فوق خده الناعم.

كان مصطفى سعيداً.

أحس يذوقه لذلك حول القلب، وبرغبة أن يحكى وينصت له الكل. ارتعش لسانه، غاص في بشر فمه، لم يقدر على حمل شلال العواطف الراضية بداخله، عجب مصطفى، بحث عن بداية يومه في نغمة فوجدها بعيدة، لم يجد بداخله أثر رهبة أو خوف، كاد أن يقول لزميله أنه سعيد وإن كان لا يعرف لم.

لهم زميل طويل اللسان. لا ينحوا أحد من كلماته، وله قدره

لريدة على التقليد، توقف، أجبرهم جميعاً على الوقوف، بدأ يتحدث.

.. أول ماتوصل للعسكر بلوقت.

الصمت مؤكد. فهم يسمعون تردد أنفاسهم.

.. الشاويش عبد الله يقف.

بقاد حركاته وكلماته. ينتقل إلى النقيب فتحي أركان حرب العسكر، قائد السرية. القائد. وهو في تقليده، ينتقل من الصوت إلى الحركة. انهم يشككون بآثره حوله، يقتربون منه. مضيقون من عيونهم، لكن يشاهدوه، رغم الظلام.

الليل يخر عن آخره الآن. وقمر العشرة أيام الأولى من رمضان يرتفع سابحاً فوق صفحة السماء، ويجواره نجمة أو نجمتان، ظهرت أجزاء منهما، مصطفى وزملاءه يسيرون، وأثناء السير يتوقفون، ويجلسون، الحديث يتشعب كحارات قرية مصطفى. وحملت نسمة هواء ليلية رطبة، الضحكات وكلمات الرجال يسويرون ببطء.

انطفأت الكلمات، وأتى الصمت سريعاً، وأطل كل منهم داخل نفسه، نشط مصطفى، بدأ يستعيد صوراً شاهدها في سفره الطويل. كانت اشياء بسيطة وعادية. وجه فتاة صغيرة، فيه كل جمال العالم، لوح له من بعيد، من وسط اطار نافذة مفتوحة، والقطار يجري به. أم تجلس على مقعد في محطة قويسنا، يبدو أنها تنتظر القطار الذاهب إلى الأسكندرية، تضع طفلها على صدرها.

الطفل مستكن لحلمة الثدي بين شفتيه. قزح الطفل من صور
القطار. فأغمض عيني، الهواء المشبع برائحة الخضرة والماء والأرض
الروية حديثاً، يحمل له كلمات وداع المسافرين، على المحطات في
اللحظات الأخيرة وجه فتاة ناضجة، يبدو قشعة من النور فوق المقعد
المواجه له. وكبت من طنطا ونزل هو وتركها في بنها.
إن هذوا يتراقق في صدر مصطفى، يبدو ممتزجاً بشفة إنسان
فرح.

اكتشف أنه تأخر عن زملائه، فأسرع في سيرة كي يلحق بهم.

(٥) القلب يدمع قبل العين أحياناً ، أحاديث ومشاعر أصدقاء الغزالي ليلاً . .

الليل، الليل الشامل، المساء يصعد إلى السماء، تشعر به واضحاً،
ولكنك لا تستطيع أن تراه أبداً. يأتي الأصول الرمضاني المستطيل
الوجه. أخيراً يؤذن المغرب، يجرى الغزالي إلى البيت. ويكون ضوء
النهار كما هو، يمنح المراثيات وجوباً منقرواً، لا يبقى الغزالي في
البيت سوى وقت الاقطار. يشرب الدور الأول من الشاي، آخر
شغطة من الشاي تصل إلى فمه وهو واقف. يشاهد من خلف زجاج
الوب المغبش ببقايا الشاي، مصطفى حبيب الغزاد، وأمه ونوره،
يضع الكوب، يجرى، فيصطدم بالطليلة.

هذا المساء. شعر بحرج. سمع صوت الأطفال وهم يلعبون في
الحارة. نداءات يطلقها زملاؤه، يعرفها الغزالي جيداً. مال على نوره،
اقترب منها، وضع فمه على أنفها، قال لها، إنه يريد أن يذهب
لزملائه. لم ترد عليه بنفس الهمس. أشارت ناحية الحارة، انكمش
داخل جلده عندما سمع صوتها عالياً.

- الباب يعدى جمل.

تحرك بهدوء، متحاشياً نظرات أمه، على عتبة الباب وضع ليل

جليابه بين أمتائه، وانطلق يجري، سمع صفارة وتصفيق يذ، فرر عليهما بالمثل.

ليل رمضان. موشى بالفراج جدياء بجوار ما يرويه الأبياء والأجداد. عن رمضان الزمان القديم. في الباحة التقى بالأطفال. بدأ الغزالي سعيماً ومهموماً في وقت واحد، على لسانه تزجج انكلمات وفي الذهن صور وعوالم خيالية. أن الأولان له. أن يتكلم. في الأيام السابقة؛ كان يستمع لكل مايقال، اليوم. تغير الحال. سافر مصطفى إلى لبنان وإن كان سفره غائباً. لقد سمع الغزالي من قبل. كثيراً من الحكايات عن السفر. لحظة الوداع. السيارات الغربية على نوافذها ستائر مسفة، الدموع تجري والقلوب تخفق والأباني تتعاقب، معبرة عن حنين غامض. المشهد الذي رآه الغزالي في بيتهم وقت العاصري كان صامتاً. الكلمات قبلت بسرعة، لم يفهمها. اندس بين الأقدام وأطل بوجهه خارج البيت. الحارة كانت خالية. لا سيارة ولا مودعون ولا أبواب مفتوحة ولا حقائق كبيرة مربوطة من يدها بأوراق مكتوب عليها كتابات بلغات اجنبية.

اشبه الأطفال إلى مصطفى صغيرة مهجورة، جلسوا، لم يستطع الغزالي أن يقاوم رغبة في الكلام. مصطفى اندفع قائلاً. راح الحروب. صوته كان رقيقاً كورقة السجاجة، خفوه لم يتناسب معاني الكلمات، نظروا إليه، بدا في جلسته أسفر كثيراً مما يقال. كان يرتدى جلباباً مقلماً بالأزرق والأخضر والأحمر. على الراس طاقية

من القماش نفسه، الفارق الوحيد أن خطوط الجلباب بالطول. تبدأ من صدره هابطة نحو الأرض. الطاقية خطوطها دائرية. تلتف حول الراس بالعرض. الغزالي يقيق الأطراف، شئيل الحجم. كانوا يسمونه الولد بليه لولا تدخل أمه في الأمر خوفاً من أن يلتصق به ذلك.

أكبرهم سنًا ولد اسمه بدر، يعرف ما لا يعرفه أحد، يشرح لهم كل أمور الحياة الصعبة والمعقدة، وهي كثيرة. بدر في السنة للدرسية السادسة. تعدى العاشرة بسنتين ويفصل بينه وبين الغزالي، أربع سنوات من العمر.

كان أول المتحدثين :

- لا ياغيبط.

صاح الغزالي:

- نا خويا وأنا اللي موصله.

- مصطفى راح العسكرية، مش الحروب.

غمس واحد نفسه بينهم.

- العسكرية هيه الحب.

أشار لهم بدر أن يسكتوا.

- تفرق كثير خالص.

أصبح صوت بدر أكثر هدوءاً. أنه يجرب قبيهم كل مقاميمه ومعلوماته عن الحروب والقتال. والد بدر مازون البلد، يذهب كل

صباح إلى أيتاي البارود، وعند عودته وقت الأصيل. يشاهد الأطفال تحت أبطة جريدة مطبقة، وعليها أنار عرق يده. ويقع ونقط حبر. يؤكد لهم بدر كل مساء، أنه يقرأ الجريدة في الليل. يفلها.

— هكذا يؤكد لهم من مطلق لسلامو عليكو.

— الحرب يا جماعة.

يقول لهم بدر، أن آخر حرب، هزت بناء، كانت من ست سنوات. أغلبهم لم يكن قد ولد يومها. بدر كان في السنة الأولى. بمدرسة عسران عبد الكريم. ويومها تعطلت المناس. وكانت شد — إسرائيل.

ردد أكثر من صوت الاسم. توقف بدر، لاسمت عيناه وجوهم، فرداً فرداً.

— طبعاً ولاحد فيكم درس الجغرافيا.

حركوا رؤوسهم في حيرة. قال لهم، انه كان يود أن يعرفهم مكان فلسطين التي تحاول إسرائيل اغتصابها. فلقد درسها في السنة الماضية. ولكن لا توجد خريطة.

— بكرة تكبروا وتعرفوا.

الغيظ ياكل قلب الغزالي، ضاعت الفرصة. وها هو بدر يتكلم بدون توقف، فاطعه صوت:

— هوه فيه بعد بلادنا بلاد.

— يتقول ايه ؟

استراح بدر في جلسته، رده كان على شكل حديث عن مصر والعالم المحيط بها. بدر ينطق الكلمات بسرعة كما قيلت له في المدرسة تقريباً. صوته يكتسب في آنان المحيطين به معاني أخرى. تسلمهم إلى حبرات جديدة.

سأله الغزالي :

— ومصطفى خدوه ليه ؟

السؤال كان مفاجئاً :

— شوف ياسيدي.

بعدها لم ينطق بدر ولا كلمة واحدة. تعلم ولم يكرر الكلفتين أكثر من مرة. حاشراً بينهما كلمات مثل، أصل، انماء، يعني ..

أكمل الغزالي :

— مصطفى ضابط كبير ورئيس الجيش كله.

انتفض بدر :

— كله إلا دي.

— والله مصطفى ضابط كبير.

— ايه ؟

— سترته القديمة في البيت. متعلقة على الحماله. وفيها شريطين

سعر. أمي قالت دي علامة الضباط.

صوت بدر يعلو :

— مصطفى أو مياشي.

وقع بحر يده، مشجراً بأصبعين منها، ليدل على عدد الشرائط ونوع الرتبة، أحتار الغزالي، ولكنه قال :

- من فيكم له أخ في الحرب :

صحح بدر :

- العسكرية مثل الحرب.

- الحرب.

- العسكرية.

مد بدر يده، فأجلس الغزالي - شعر الغزالي بالارتباك العيون ثرشه بنظرات لم يفهم معناها. رفع يده. وكبس بها الطاقية فوق رأسه، التي بدت ملامحها وأشعة الرأس مستطيلة وليست دائرية. وكثيراً ما أضحكت زملاءه منه، الكبار يقولون أن السبب في ذلك، أن الداية سحبت من رأسه وليس من قدميه، فاستطال شكله.

- الحرب لو.

بدر يكمل حديثه: لو قامت الحرب، بلدنا هي أول البلاد التي ستعرف. طبعاً لا تعرفون السبب، سأفوله لكم. في البلدة، القرية الموجودة في الود الشرقي لبحر النيل، يوجد مطار كبير فيه طائرات ومدافع وعساكر وجيش بأكمله، ما أن تقوم الحرب، حتى تنطلق الطائرات، تعبر سماء البلد وهي ناهية تضرب إسرائيل. وفي هذه الحالة، من الواجب عليهم أن يصعدوا فوق بيوتهم لكي يحويها وهي في طريق العودة وقد تحصل إلى الأذان، أصوات احتكاك

عجلاتها بأرض المطار عند الهبوط فيه، وقد يضرب المطار، فتهدأ أصوات الانفجارات البيوت وربما تسببت في تصدع المباني وانهايار القديم منها.

- انتم لسه صغار. في الحرب اللي فاتت.

الأطفال يشربون كلماته. يغمسون أذانهم في حروفها وهو يحكي. شاهد أهل البلد مرة جسماً صغيراً، يندفع نحو الأرض، راسماً خطاً في الأفق على شكل نصف دائرة من الدخان الأسود، يبدأ الخط في الاتساع، ليتحول إلى مساحة واسعة من الدخان. الكل خمن، والكل تحدث، والكل قال: يا صاروخ، قنبلة، طائرة، وقعت الطائرة شرقي البلد اعتقد الناس أنها سقطت في النيل. بعد أن جروا نحرها، اكتشفوا أن البصر خداع. أنها نائمة فوق الشط الشرقي من بومها والكل يعرف حكاية المطار الكبير المقام وسط الحقول.

انطلقت الكلمات على ألسنتهم، الصمت غريب على عالمهم. بدعوا حديثاً عن رمضان. ولكنه لم يستمر كثيراً، قال واحد :

- نتقابل في السحور قدام أبو نشابة.

الوقت متأخر. عرفوا ذلك من الشوارع والحارات التي أصبحت خالية من الناس. وأبواب الدكاكين التي لا يلف عليها أحد، الشوارع مضاءة. أول رمضان يأتي بعد النور، تفرقوا، في الطريق يشعر الغزالي بحنين حار لمصطفى، في الأمام كان مصطفى يمر عليه، وبأخذه، يعطيه يده اليميني، فتتشبك اليدين. يبطن مصطفى من

صيره. في صمت كأنها يقطعان الطويق إلى المنزل. الغزالي يسير بمفرده. طوح يديه. فبدأ خياله أمامه مضحكاً. شبكهما خلف ظهره. أبطا سيره. نزل إلى قاع الشارع وسار فيه. باب بيتهم كان مفتوحاً. تطل من داخله ظلال الأشياء. على لسان الضوء المنبعث من الللمبة الصفيح. اثنت الكهرياء. لكتها خاضعت منزلهم. العين بصيره واليد قصيرة. كانت أمه جالسه مع أخته. بدأ في وقفته على العتبة. ضيقاً. خبطت أمه على صدرها. بهتت أخته. ظل واقفاً في مكانه. طفحت عينها أمه نوراً ولمعاً :

- الخالق المناطق مصطفى في وقفته.

جري الغزالي إلى أمه. رمى نفسه في حضنها. الذي كان دافئاً وليناً في الزمان القديم. مدت يدها. رفعت بها وجهه إليها. شعرت أن مصطفى ينظر إليها من خلال مهبط الغزالي. ينبض القلب نبضة واحدة. العين حفرة بلا رموش جف منها ماء الحياة. ولم تعد تسعها بقطرات الدمع الدافئة. من قبل كان المرحوم والدهم يشربها بنظراته من خلال عيني مصطفى. الآن يلعب مصطفى قلبها المنعب من تحت رموش الغزالي. وضعت رأسه على صدرها. نوره تخفى ارتباكها تحاول أن تبدو مشغولة. رفع الغزالي رأسه. نظر نحو أمه :

- مصطفى جاي امتي؟

عدت على أصابعها:

- بعد تسع أيام.

- على فكرة، ذا ماراحشى الحرب.

- من اللي قال لك . .

- الناس كلهم، أسأل الحرب غير العسكرية

حملته يدها، أجلسته على الأرض وقامت. بلغ كلماته وحبسها في صدره. أفضبه أنها لم تستمع لكل ما قاله. اقتربت نوره منه. كان يطل من داخل طوقلتها العابشة أنش. توجد أشياء كثيرة لا يقهها الغزالي. اقترب منها، أمسك يدها، ودخلا للندرة. على الحصيرة المائكة. تربعت. وضع رأسه على فخذه. وبدأ يحكي. قبل الحديث. أكد لها أن ما سيقوله سمعه الليلة من أكابر البلد. ابتمعت قبل أن تسأله. وكيف جلس معهم. رفض الأجابة على سؤالها. وعندما قال لها أن الحديث كله كان عن مصطفى، ارتضت رموش العين المشرعة. وتحولت خطوط الغبار المستقيمة على الوجه الجميل. إلى أنصاف دوائر تهتز مع الكلمات.

الغزالي يحكي. ونوره تجوس يدها على جسمه الصغير. صوته يرتفع. ويستخدم يده في الحديث كثيراً. ترتفع رأسه أحياناً. يقرب فمه من أذنهما. ليقول لها سرّاً ما.

في منتصف حكايته. غلبه النوم. توقفت الكلمات على لسانه. اغمض عينه. في وسط الدار. كانت أمهم تنزل الحطب وتحضر العجين وتفرش الأجولة القديمة على الأرض ارتفع صوتها ينادي نوره. رفعت نوره رأس الغزالي. شدت ملابس قديمة من فوق

الجمالة، كورتها ووضعتها تحت رأسه، أغلقت باب الدار. ووضعت
 اللحية فوق رأسها، واتجهت داخل البيت. اقتربت من أمها. كانت تطل
 من فوهة الفرن السخنة لهب تتراقص. ومن الخارج كان يأتي صوت
 يتلو آيات القرآن. وصل الصوت. ولكن نسمات الخريف هبت
 فبعثرت بقية الآيات.

(٦) تبث أن دعاء الأم حجاب .. فصل فيما
 جرى لمصطفى بعد وصوله إلى المعسكر بالسلامة.

خطر، منطقة مناورات، معنوع الدخول، أبرز تحقيق شخصيتك
 معنوع التصوير، منطقة عسكرية، اجذر، حقل القمح. قف للتفتيش
 المناطق المحاطة بالأسلاك الشائكة، دوريات الشرطة العسكرية قاعات
 الطعام الواسعة. خيام السكنى، مكاتب الاستعلامات سيارات الامداد
 بالماء والوقود.

في البداية، فوجئت العين التي لغت الظلام. بنور بطارية يسلط
 عليها. رفع يده اليسرى، غطى بها العين وباليدين اليمنى أخرج أوراقه.
 امر الاستدعاء، كعب استمارة السفر، بطاقة شخصية، كشف
 مهمات.

.. اتفضل يا نعمة.

بعد نزولهم من القطار الحربي، ساروا على الأقدام، في الزمآن
 القديم، كانت تنتظرهم سيارات. خلال السير تصبح ذكرى الأيام
 البعيدة وسادة يستريح فوقها القلب. العين نصف مغمضة. والقدم
 تضرب على الرمال بهدوء. أمامه مساحة واسعة من الظلام. للمسافة
 شويلة. لابد من الوصول. الخيام والحيال. والمنشآت العسكرية
 حولهم. أشكال مبهمه. تبدو في الليل، أشباح غير محددة الملامح،
 السجائر تدور مع الأيدي، راسمة نصف دائرة. تحدثوا عن المبيت في

المعسكر، طُلبوا التعيين وقت المسحور في الليالي الشتوية الباردة،
توبتجيات الخدمة.

لؤل الأصوات، كانت خلفه :

- بكرة اليوم الأول.

أكمل آخر :

- كلها ثلاث تيام.

نظر كل واحد منهم لجاره، في الظلام يبدو لعان العيون واضحاً،
ارتفعت الأيدي تربت على الظهور - واقترب شاب آخر - وخدش
الصمت صوت يقول:
- والله زمان.

بعد ثماني سنوات سرحنا من الخدمة، من عشرة أشهر، وصل
الأمر، إلى الوحدة ذات مساء، بسيطاً وسهلاً وواضحاً، كان الأمر
كلمة تقول «تقرر تسريح المعاربين القدامى من الخدمة»، أحسست
بالغضب من كلمة القدامى، سنوات عمرى لم تتعد الثامنة
والعشرين - ورغم هذا، أثبتت كلمة القدامى، احساساً بالكهولة
والعجز قبل الأوان، لحظة تسريحى من الخدمة، فتشت بدافئى عن
احساس ما، فرح، دهشة، كان بالداخل هدوء وراحة لأطعم لهما، فى
الأيام الأخيرة من سنة ١٩٦٥ سافرت إلى الإسكندرية، بعد رحلة
طويلة عدت إلى بلدتى، الاسم والرسم والبيانات واللامح هى
نفسها، الدم واللحم والأعصاب ونظرات العيون تغيرت كثيراً.

وصلنا إلى الوحدة، الظلام سشارة تحول دون الرؤية على البوابة،
جندي حراسة فى يده سيجارة ارتفع ضوؤها، فائركنا أن يده تقترب
بها من فمه، أصبحنا أمامه، سحب نفساً طويلاً، فانبثقت كرة من
النضوء الأحمر الخافت، تعرت تحتها الوجوه والعيون واللامح
فعرقنا بعضنا، هوت السيجارة بجانية، فتأثت للامح مرة أخرى،
سلمنا وأبرزنا أوراقتنا ومهاسنا، وتناثررت فى الجو كلمات، جعلته
مضطرباً برائحة انسانية رغم وحشة المكان، قمنا بجملة إجراءات،
مكاتب التسجيل، معسكر الاستقبال، الاسم والعنوان، أقرب
الأقارب وزعموا علينا استمارات بيضاء، نظرنا فيها، حاولنا قراءتها
قبل لنا، المطلوب أن يدون كل منا اسم من تصرف له كفاية
المستحقات المالية فى حالة الاستشهاد ومكتب البريد، أو البنك الذى
تحول عليه الميراثات أثناء العمليات ضحك واحد منا:
- قال الاستشهاد قال.

سبق أن دونا نفس البيانات من قبل، فى التهارات وخلال الليالى
وقوت الغروب، وكثيراً ما على مكاتب، أو سدينا الورق على الحيطان،
أو فوق أرجلنا، فى هذه المرة ران علينا صمت ونحن نكتب، لم يكن
هناك سوى همهمة من يحدثون أنفسهم بأحرف من كلمات.. وأجزاء
من جعل لا يفهمها سوى صاحبها وحده دون سواء، أحسست
بالضهرية وأسى، رايت الغزالي واضحاً، نظر إلى بعينه الرائعتين
من خلال أسطر الاستمارة، النظرة كانت طويلة، أصبحت لحد

العشق، مددت يدي لأكتب بقلم كويبا بثلثة بمعنى اسمها، في خاتمة درجة القرابة دونت أمي، شطبتهما وكشيت الكلمة التي يجبها العزالي، والبنتي، ارتجفت بداخلي شغف وراق وأنا أدون بوسنة الشهرية التابعة لمكتب بريد التوفيقيّة، محافظة البحيرة.

الكل يكتب، يحاول ما يداخله، إلى خطوط متعرجة، أو دعوا قهها، نوب قلوبهم، نظرت في الورقة كان الخط مائلاً متعرجاً، واضحاً في أماكن، باهتاً في أخرى، استغرقت في النظر إليه، بدت خطوطه كقنوات حقلنا والجسر المحيط به. رحت أسير بأصابعي على الخطوط، ها هو حقلنا، أرض الجيران، إنساقية، الشرعة، مساحة البرسيم، الأرض السوداء التي بذرت فيها القمح قبل استدعائي بثلاث أيام. سلعت الورقة، وخرجت إلى عنبر آخر.

الليل يتقدم ولكن لا يزال أماننا عمل كثير.

— فرش متاع.

حملت إلى الكلمة رائحة الأيام السابقة، فتحت مخيلتي ووضعت مهماتي على الأرض، الصف يبدو طويلاً، والضابط يتوقف كثيراً أمام كل فرد ليراجع مهماته، في اللحظة الأولى أخذنا الأمر بجديّة بعد قليل أصبحنا جنوباً قدامى بالفعل. بنا كل منا يسأل النواقف بجواره أن يسلفه الناقص من مهماته. حتى يمر دوره في التفتيش، ثم يردّها إليه. تنبه الضابط للمسافة، كشفت أمرنا غمزات العيون والبسمات والضحكات، أمسك بزميل بجانث آخر بالإشارة يطلب

منه ملققة، لم يكن من العسل النطق بالطلب ولذا حرك يديه ممثلاً — تساول الطعام بالملققة لكي يفهم طلبه. وبنفس الطريقة تصرف معنا الضابط، بدأ التفتيش من أول الصف، الضابط أمامي ولهم زفر في ذيل الصف، سؤالا الأول كان عن القصر المعدني. كان معنى. أخذته قراء بيانته بصوت مسموح، الاسم، الرقم العسكري، تاريخ التجنيد، تاريخ الميلاد، فصيلة الدم، كنت أرد بعد كل بيان، مؤكداً صحته، أعطاه لي، لففته في يدي، ومدتها لحبسي، نهض بصوت عالٍ، ويلهجة جافة:

— القصر يوضع هنا.

اقترب مني، أمسك به، حول السلسلة المعلق فيها، إلى دائرة صغيرة في يديه وفهما، وضع السلسلة حول رأسي. وتركها تهبط وتلتف حول رقبتني، أحسست أن الجو بارد، عندما انزلت القصر فوق صدري. تحت ملابسي الداخلية، مسقوياً في مكانه، بين شعيرات صدري الغريبة.

— القصر لا يخلع مهما كانت الأسباب، لو استشهدت هو الدليل الوحيد لمعرفة شخصيتك.

وجه الضابط قريب من عيني، ارتعش شيء ما في حديثي عيني، وهو يستدير ولفت يدي:

— حاضر يا أقدم.

ذهبنا إلى المخزن، استكملنا الناقص من مهماتنا، وأتى منتصف

الليل سريعاً. أعطوني بطانيشتين وزمزمية، وخوزة وجربشديه، وشباراً
 باخليا، وأقرولاً جديداً، ورباطاً ميدانياً معه بعض الاسعافات الأولية.
 وقفنا للمنتهيم علينا. صمتنا، كان كل منا يلتقي بذلك الحضور
 المغمم بداخله الذي لا تعبر عنه الكلمات، تصلني بعض الأصوات
 خالية من حماس أول الليل، كنا نقف في أرض الطابور، الضابط
 ينادي ومن يسمع اسمه يرد عليه، يحمل مهماته بعد أن يعرف
 فصيلته وحكمنا، ويتحرك نحو الخيام، يتحدد وجوده عندما يفرق
 في بحار الأشواء الخافتة يبدو ظله مستطيلاً، يسير ببطء وراءه،
 يخرج من العتمة بالتدريج، القمدان في حناء عسكري لم تطفأ
 بعد، أقرولاً واسع ثور بداخله ملامح الجسم، يناه ترتفعان كي
 تسخدا مثله مهماته التي يضعها فوق كتفه، الرأس والطاقيّة تاهت
 بجوار المخلّة، الخيمة المخصصة له، يعرفها، ولهذا فهو يسير بلا
 دليل.

الضابط مازال ينادي، طال الوقوف فأمرنا بالجلوس، الحصف
 يتناقص والأصوات التي ترد عليه، تختلف من فرد لأخر، الجالس
 بجواري زحرج مخلته على الأرض، مقترباً مني، فشممت رائحة
 الرمل والتراب، لامست مخلته مغلتي، أصبح بجواري، مد قدمه،
 خبط بها قدمي تصورت أن ذلك غير مقصود كنت أتابع الأسماء،
 منتظراً سماع اسمي، مد جاري يده، لكنني بها، نظرتي إليه كانت
 مزيجاً من الغضب الهادئ، وحب الاستطلاع. اقترب مني أكثر،
 همس لي:

- دي الحكاية.

لم تصلني جملتك كلها.

- بتقول إيه؟

أقرب هذه المرة أكثر، كانت شفتاه أن تلامسا اثني، عندما نطق
 كلماته الأربع أحسست هدفه أنقاسه ورطوبه بخار فمه واضحة على
 جلد اثني:

- دي الحكاية باين عليها جد.

لم أرد عليه، اقترب أكثر، صنع من يديه بوقاً وصلني همسه.

- الاستدعاء مختلف عن المرة السابقة.

وشع يده على كتفي، وأدار وجهي ناحيته قعرفتني:

- مصطفى؟

- نعم.

- مالك؟

قبل أن أفتح فمي لكي أرد عليه، سمعت اسمي مسبقاً برتبتني:

- أنتم.

رأسي تحت المخلّة، نظراتي تصانح وجوه الجالسين في إنتظار
 دورهم. ثمان العيون يبدو خطأ طويلاً بلا نهاية، رأي زميل قديم،
 أعسكني من قديمي؛ توقفت ونظرت إليه. فقال لي ضاحكاً:

- مبروك عليك خيمة الحصف ضباط.

في الخيمة، وضعت مهماتي، لم أتم، لكل مكان جديد دهشة

وفرحة ورائحة خاصة، ذهبت إلى الفضاء الواسع أمام خيام الأبرار.
حيث كنا نجلس طول الليل نتكلم. وجدت زملائي، تمكنت من رؤية
وجوههم رغم خفوت الضوء. اقترب موعد السحور. النوم ثم
الاستيقاظ متعباً، يبدو أن الكل فضل السهر مثلي. للملابس جديدة
خشنة، والوجوه متجهمة. الكلمات الخارجة من الأفواه قاسية، كأكية
النون والاحساس والمعنى. تكلموا. الحديث يفتح في القلوب نبعاً
رقيقاً. وملامح الوجوه تسيل ليونة، الكلمات ترق، تنبت بداخلها
قلوباً تنبض، تصلها بالآذان أورد، بداخلها دم حار ملتهب. هبت
نسمة هواء باردة، فتمدد بداخلي حينئذ للبهت وللنوم فوق مراتب
وتحت أغطية ثقيلة. .

كان الضابط قد انتهى من التعميم علينا، عاد إلى خيام الأبرار
بين يديه أوراق ودقات وسجلات، وجننا فابتسمت ملامح وجهه:
- أهلاً بالزملاء.

وقفتا، غمقت الأفواه. اقترب منه واحد منا:
- كل مرة، كنت بتقول أهلاً بالضيوف.

كان قد تعدانا في سيرة، توقف واستدار إلينا:
- وهية تفرق؟

- كثير.

قال الضابط وهو يشبه ناحية الخيام:

- ضيف، لما تحضر يوم، وزميل لو طالت الإقامة.

على باب الخيمة. خبط الضابط حذاءه الضخم مرات، نظر إلينا:
- اتمنى لكم إقامة سعيدة معانا.

الجلسة الآن على شكل دائرة. اقتربنا من بعضنا دارت في
الحاجر حبات عيون لتبعتها الرغبة المؤجلة في النوم. مر علينا جندي
قديم، نادينا عليه. اقترب منا، فشجعنا رائحة النوم في ملامحه،
عرفنا، فتحول إلى ثراعين مفتوحين لنا، سألتناه:

- إيه الحكاية؟

- حكاية إيه؟

قاطعتا:

- لا . .

جلس بيننا على الرمل. كانت في يده قروانة وكوب بلاستيك.
ويطل من جيب أقروله نصف رغيف، وضعهم بجواره:
- عايزين نفهم.

استراح الجندي القديم في جلسته. وبدأ حديث، انصتتا، الكلمات
خرجت من فمه على شكل أسئلة، لم تكن شرحاً.
- دلوقتي أحنا امته؟

- عشنا الأيام القديمة:

- العشرة الأولى من أكتوبر

اكملت:

- والعشرة الأولى من رمضان .

رفع الجندي القديم يده:

- واكتوبر بداية فصل إيه؟

جاء الرد على أكثر من لسان:

- الخريف.

تمهل في طرح سؤاله الجديد، دار بعينه علينا قرناً قرناً، تحركت شفتاه ببطء.

- نسيتم مناورة الخريف. لازم تشتركوا فيها لأنها أحسن من أي تدريب حتى ولو كان بالخيرة الحيه.

الرؤوس تقترب. الأيدي التي كانت متجهة نحو الأنواء. وبين أصابعها سحائر توقفت في منتصف المسافة، بدؤوا في استيعاب ما قاله. إشار الجندي القديم إلى رأسه:

- هنا فيه مخ.

لوح نحوهم:

- المندية أكلت العسكرية التي فيكم.

ضحكنا. وقلت:

- دي الحرب المرة دي.

قال الزميل القديم:

- على الأقل كانوا الضابط عرّفوا.

ظهر على الوجوه إقتناع بحديثه، سألهم.

- طيب النهارده إيه؟

- أول ساعة من الخميس ٤ اكتوبر. حا أفكر كم مع أول ضوء من

يوم السبت الجاي. حاتبتدي المناورة.

من نازل المعسكر، لامس أذانهم صوت البروجي، خرج من

صمت الليل خائفاً، غريباً على الأذان. بدأ يعلو رقصت أحرف

الكلمات على سقايمهم. بدأ بعضهم في الوقوف. البروجي يعزف

نوبة جمع لطاير التعيين. هاهو وقت السحور. قاموا، اتجه كل

منهم إلى خيمته، أخرج منها أدوات الطعام. التي لم تستعمل بعد.

اتجه مصطفى ناحية للطبخ الميداني الصغير. شمع رائحة وعمل

لامست وجهه بعض حياته. نظر أمامه فشاهد سحابة من الغبار.

اقترب منه زميل آخر، نظر نحوه. من خلال حبات الرمل. وصوت

الأقدام. ونداءات الجنود. . سمعه يقول:

- اليوم الأول بيكون صعب. بعده تهون كل الأمور.

رفع مصطفى يده. كان يمسك بها القروانة والكوب لوح بهما

قائلاً:

- يا صحيح فعلاً.

أنى الفجر. له نيل الحمر. عند خط الأفق البعيد، انتشر ببطء على

صفحة السماء. التقط نجوم السماء المتناثرة على سطح السماء.

كالحب من فوق أرض الجرن. في السحور وقف مصطفى، ينتظر

نوره. كي يصرف تعيين السحور.

(٧) عن الرقم سبعة ، الحرب ، العاثرة ، شجرة
النوت ، ثم السبب في وقوع الغزالي على الأرض فجأة

فريتنا شكره الأرقام الزوجية، لا أحد يدرى السبب في ذلك، الكبار
يقولون إنها دليل شؤم، الأرقام الفردية ذكرها يسيل على ملامح
الوجه لينة. ويمتخ القلوب راحة. عندما يبدؤون في العد، يقولون:
الله واحد، يخبثن الصوت عندما يكملون «مالوش تاني» تعود
الراحة إلى الصوت والوجه وهم يهمسون: الحبيب ثالث الأنبياء.
الرقم سبعة مرسوم فوق القلوب. وفي حياتهم البسيطة تكون
الأشياء جميلة لا ارتباطها بذلك الرقم. يعدون الأيام بالأسبوع. ومولد
سيدى الأربعين يكون أسبوعاً. والسوق الكبير يقام في البلد يوم
السبت من كل أسبوع. عند سفر أحد أبناء البلد، وينتشل الفكر
والبال عليه. الجنين لا يكونى النفوس إلا في اليوم السابع. بعد أن
تستدير الليالي والنهارات مكونة سبعة أيام.
- زى النهاردة كان سفره.

في اليوم السابع فقط، تترك الضهرية أن أبناءها سافروا وأنهم
غابوا. وفي اليوم السابع تترك أنها تحب كل مايفهم حتى الشقاوة
واللعب والجري.
- الغريب طالت غريته.

في اليوم الثامن تبدأ الضهرية في الحديث عنهم. أنهار الكلمات
التي تقال تنبع من بحيرة واحدة، وكل الجمل تبدأ بهذه الكلمة:
- ياترى.

ينطقها الأفندية «ياهل ترى». المعنى واحد على كل لسان. طبلية
الانظار والاستيقاظ من النوم على دقات السحور، أوقات يبتد فيها
أبناء البلد من لحظات الانتظار.
- ياترى يهبطوا فين دلوقت.

التساؤلات الخارجة من اقواء تخضع الطعام ببطء وتكون من
النساء عادة. أما الرجال فيتسنعون الجدة.
- زمانهم في وحداتهم زى زمانيلهم.
ويرد طفل صغير.
- يابختهم.

يظهر الرجال عدم المبالاة، يقفون في وجه الضعف النسائي
الجارف، ولكن شيئاً مايدخلهم يخونهم، الدموع تدق جدار العين،
الرجل رجل. والجلسه حول الطبلية توشك أن تنتهى، وبعدها يخرج
إلى الجامع، أو الدكان وهناك يفعل ما يحلو له.
مساء الثلاثاء، سافر مصطفى، مر الأربعاء والخميس والجمعة،
أدركت أمه أنها أصبحت رجل البيت من بعده، فقررت القيام بالعمل
الذى كان يقوم به، ذهبت إلى الجمعية ختمها كان في جيبيها، أخذوة
منها، فمسوه في الختامة وختموا به أوراقاً كثيرة، وأعطوها

تتجه أخفته إلى قفص الدجاج تقطع لها الباب الصغير، تنطلق ويصيح كل شبر في البيت مباحاً لها، أصوات المنازل الأخرى، نهيق حمار، نباح كلب، صوت رجل يحدث زوجته، قبل ذهابه إلى الحقل.

قام الغزالي، دخل غرفة العاشق، أغلق الباب خلفه، تناول افطاره وهو واقف، رمضان هو الذي منعه من الأكل في أي مكان آخر. الغزالي لا يصوم. وإن كان يسبق الكل إلى الطبلية وقت المغرب، وقبل أن ينام يمسك نوره من يديها، ويحلقها بكل الذين سائوا، ويشرف الذين لم يموتوا بعد، ويمقام سيدي صلاح الدين، إن نصحية في السحور، وإن كان لا يأكل كثيراً. لقمة أو لقمتين، وينطلق بمجرد سماعة صوت طبلية المسحراتي، يوقفه الباب، لا يستطيع أن يفتحه، فالوقت ليلاً والباب مغلق بإحكام خوفاً من أولاد الحرام. يفتح له مصطفى، وينطلق كي يلحق بالمسحراتي.

كان افطار الغزالي، من بقايا سحور الليلة السابقة. هكذا تعود في رمضان، لكل حتى سبع، لبس الجلباب المقلّم وكبس الطاقية حول رأسه. ويس قدميه في حذاء قديم. اليوم عطلة، والغزالي يفهم الطلب منه دونما كلمات. سيذهب إلى الحقل، أركبته أمه الحمار. وأعطته في يده مقود الجاموسة وأطلقت للأعر، سارت الحمارة، فهي تعرف الطريق، الحمارة ثم الشارع وأخيراً إلى دابر الناحية. سمع من راديو موضوع فوق بنك يقل، أناشيد وأغاني عاليه الصوت انتهت إلى دابر الناحية، وخلف الجبل ورائه، وأصبح على الطريق الذي يوصله إلى الحقل.

الكيمائي وثقت في الحقل طول النهار. قالت نورة مساء اليوم الثاني لرحيل مصطفى للغزالي. أنها عندما ذهبت لأمها في الحقل، وجدتها تربط وسطها وتلف رأسها بالطرحة، وتمسك القاس وتعمل، من بعيد خيل لها، أن رجلاً يلبس جلباب امرأة يعمل في حقلهم اقتربت منها فاكتشفت أنها أمها.

في الصباح، فتح الغزالي عينيه، فوجد خطأ من ضوء الشمس، يبدأ من رأسه، ويمتد مع جسمه وينكسر قرب الحائط. الوقت هو الضحى. ومن قبل حاولت نوره أن توقظه ميكراً مثل كل يوم، أتاه صوتها مختلطاً بصياح الديكة: ... حلتاخر عن المدرسة.

قال لها، وهو تحت الغطاء، إن جميع المدارس في القطر كله، قد أغلقت ابتداء من اليوم بسبب الحرب، هزته نوره: ... وطبعاً قلت بركة بإجماع.

أغمض عينيه ولم يرد عليها، وإن كانت كلماتها قد ذكرته بحكاية الرجل، الذي لم يذهب للصلاة أبداً، طوال حياته كلها وهو لا يصلّي. ونات مرة أرغموه على الذهاب إلى المسجد، راوغ وحاول الهروب. ولكنهم ساقوه، فوجدوا الجامع مغلقاً، قهّل، ومن يومها كان القل، تسله أصوات كل صباح، مناجاة أمه للجاموسة قبل جلبها، حركة أقدام الجاموسة، اصطدام رأسها باللدود، يتلاشى الصوت، فترة من الهدوء يأتي بعدها صوت شر شوب اللبن واصطدامه بقاع الشائبة،

الأمس كان نصف يوم فقط، في ظاهور القسحة أتى الناظر بشخصه، وقف في منتصف المربع الذي يكونونه بوقوفهم وتحدث معهم. لم يصل صوت الناظر إلى الغزالي، شعر بالواقفين حوله يصفقون فصفق معهم. بعد ذهاب الناظر، عرف من التلاميذ الكبار، إن المدرسة ستغلق، وإن الحرب قامت، تساءل:

— الحرب؟

لوح طالب بالسنة السادسة في وجهه:

— دى قايمه من يوم السبت.

حسب الغزالي الأيام في ذهنه:

— يعنى من أول المبارح.

كاد التلميذ الكبير أن يضره:

— شاطر، عرفتها لوحك.

حمل كيس كتبه وخرج من الفصل. في الغناء كان الطلبة قد تحولوا إلى حلقات متناثرة يتكلمون، أتجه ناحية الباب الخلفى، سار بجوار السور الخارجى، ومن قفصاته كان يرى الساعة، وهم يرفعون الذك والكراسى، يكومونها فى أركان الفصول، ويعلقون على جدران الفصول لافتات كبيرة، لم يميز المكتوب عليها، على باب المدرسة، شاهد الغزالي، ضابطاً وجنوداً، ذكره بالغالى مصطفى، كان الناظر معهم، الحديث بينهم يدور بصوت عال- الأبدى تشير والأفواه تتحرك والملاح تضحك، وحول الباب كانت

سيارات عسكرية ثقف، قال الأطفال، إن المدرسة تحولت إلى معسكر. وقال آخرون، بل مستشفى عسكري، طفل لكبر منهم سمع ما يقولون، فرماه بالجهل، وعدم الفهم. قال إن المدرسة أصبحت من اليوم:

— قيادة لقوات المنطقة.

صاح الأطفال فى صوت واحد:

— إيه؟

— قبانأ.

أعاد نطق كلمات جملمته ببطء هذه الأثرة. وشرح لهم الحكاية. الكلمات تسقط فوق أننى الغزالي. ولكنه لا يفهمها، انضم إليهم طلبة المدرسة الاعدادية، كونوا كتلة كبيرة، تتحرك وتتكلم وتسير وتترجم ببطء، المهم هو الحديث. ولذا فإن اقدام الكبار تدوس اقدام الصغار، والأبدى فى انتفاعها خلال الحديث ترمط وجهها أو تطرف عيناً. وجد الغزالي نفسه خارج النائرة، بحث عن بداية الحديث، فوجدها بعيدة، الهواء يحمل له كلمة، ويظير أخرى، حاول أن يرتب الحكاية فى ذهنه، كى يحكيها لنوره، بعد عودته إلى البيت. لم يكن ذلك سهلاً عليه. سمع كلمات عن القوات المتمركزة فى المنطقة، المطار، اسعاف الجرحى، الحرب الشعبية الدفاع عن الضهرية ضد العدو، اقترب من السائر بجواره، سأل عن يوم العودة إلى المدرسة، بدت الحقول واسعة أمام عيشية، وهو يتابع زميله الذى قال له، أن

للمدارس لن تفتح أبوابها إلا بعد الحرب .

علق صوت طالب:

ويا عالم بقى .

ابن الغريب، كان سعيداً، قطع المسافة من المدرسة إلى بيتهم المؤجر جرياً، وقعت كتبه أكثر من مرة، أسمع أشرف، لا يتأبونه إلا بابن الغريب، والغريب ليس اسم والده بقدر ما هو صفة، من السويس حضروا، لم يكن أشرف وقت حضوره قد نط عن السادسة من عمره يوماً واحداً، يستعد هذا العام لامتحان الابتدائية، قال وهو يجري أن عودتهم قريب، أكثر التلاميذ لم يفهموا سبب فرحة ابن الغريب ابداً.

فى البيت تعثر الغزالي وسط الكلمات، سقط فوق الأحرف الخارجة من فمه، لم تستطع الحكاية فى ذهن نوره، اكتفى بالقول، ان المدرسة انطلقت أبوابها نهائياً، . قالت انها سمعت ذلك من راديو فى مكان البقالة ليلة أمس، لم يجد ما يحكيه، فانطلق يعم فى برك كاذبية، قال ان الناظر أصبح ضابطاً كبيراً، والتلاميذ والمدرسين جنوباً، أما المدرسة، فهي الآن معسكر، وكل هذا فى انتظار الحرب التى ستحدث فى الشهرية بعد أيام.

اتسعت عيننا نوره بهشة، ورفضت أن تصدق، ولكن الغزالي تشبث بما قاله، وزاد عليه، قال لها، انه سيتسلم بندقية فى المساء، وعليه حماية حارتهم، وضحكت عندما أدركت أن البندقية لطول منه.

وعندما قال لها، ان ليس العسكرية، ذكره مصطفى، هبت على ملامح وجهها ربح حزينة، غرقت فى صمت طويل، ولم تعد تسمعه فصمت هو الآخر.

أول أيام العطلة، الحقل والغزالي بمفرده، حضرت معه أمه، تركته وعادت إلى البلد، كان أول ملاحظته أن سعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقلهم، من أعلى مكان فوقها وقف ينظر فى كل الاتجاهات، سمع الكثير عن مطار فى البئر الثانى من النهر، لم ير شيئاً، غطى عينيه بكفه، ليتمكن من الرؤية، لم تكن أمامه سوى الحقل والأشجار، نزل من فوق الشجرة وقف على رأس الحقل، الغزالي بمفرده، والفرصة متاحة أمامه لكن يقلد مصطفى فى كل ما يقوم به، البداية من لحظة حضوره من البيت فى الصباح، يربط انبهاهم فى مذاودها، يخلع ملابساً ويضعها فى قلب شجرة التوت العجوز، يحضر للنجل ويمسكه بيده، ينظر فى عين الشمس، ويرفع كفه يتلقى بهاضوء الشمس، ينزل الحقل، يسير ببطء، يتوقف مجلس أحياناً محاولاً رؤية شيء ما فى الأرض، والعودة من فوق الحد الذى يفصل أرضهم عن أرض الجيران، الحقل والزراعة وانبهاهم والساقية، كل ذلك ملك الغزالي الآن، فكر أن يدور حول الحقل من الناحية الأخرى، شعر بتعب من ثقل المشى، فلجأ لقيد الحمار، وضع فوق ظهره جوالاً فارغاً، قاده، وأوقفه بحذاء مدار الساقية المرتفع، لف وصعد فوق الدار، أصبح من السهل عليه أن

يركب فوق ظهروه. يحرك قدميه ووقع صوته ونخسه، تماماً كما يفعل مصطفي، على الطريق. بدت له الحقول والترعة والأشجار، نظر إلى السماء، زرقه خريفية قريبه إلى اللون الرمادي. كانت صفحة السماء صافية

من جهة الغرب، ثبت جسم لم يكن له صوت.

تصوره غراباً أو حزانة، يطير فوق السحاب، اقتراب الجسم وكبر، وملاً صوته القضاء. كانت طائرة، مرت بالقرب منه، خاف على شجرتهم العجوز أن تصطدم بها في اللحظة التي سدت فيها الطائرة عين الشمس. وجبت عنه السماء كلها، وغرق في ظلها، وأصابته رعدة، قفز الحمار. سقط الغزالي بين قدميه. وائ وهو على الأرض قوائم الأربعة، وفلاً ضخماً يغطي الحقول من حوله. القفل يتحرك راسماً هيكل طائرة على الحقول، القفل يسير ببطء، متجهاً ناحية البر الآخر من النهر.

وقف الغزالي، نفض جلابيه من التراب ويبحث عنه مداسة وتحرك نحو الحمار. أمسك مقوده ونظر ناحية الشرق، الطائرة تقترب من الأرض، تبطيء، صوته يشق، تابعها بعينيه حتى ذابت وسط الحقول والأشجار. ذهب خوفه عندما تذكر المطار الكبير.

الطائرة التي مرت لم تكن الأولى. كاد بعضها أن يلامس أوراق شجرتهم العجوز. شعر الغزالي بحينته لمصطفى الذي يفهم أمور

العالم أكثر منه. أدرك أنه يحبهم، مصطفى وأمه ونوره. وقف فوق مدار الساقية. بدأ ينظر ناحية البلد بقلق، أمه لم تمش بعد.

على البعد. عند أول الطريق. ثبتت نقطة سوداء. كانت تتحرك ببطء. عرف فيها أمه. اقتربت، فهدت له ملامحها لكثير وشوحاً. الغزالي ينتظرها. وهو يعد في ذهنه الكلمات والحكايات التي سيقابلها بها. عن الطائرة والحقل وشجرة التوت. لن ينسى أن يؤكد لها أنه لولا وجوده لبار الزرع واحترق الشجر وتهدمت الساقية من الطائرات.

(٨) لوحة أخيره ..
بدلاً من الخاصة التقليدية

١- كيف دخلت كلمة طقوا

النور حياة الشهرية ؟

الشهرية حبيب، والحبيب بحر بلا شاطئ آخر، والبحر له أعماق
وبه أماكن مسجلة ترى العين قاعها، الشهرية كائن أنمي .. يأكل
ويشرب ويحاول أن يفهم ويدرك الأمور على نحو شديد الغموض.
كتلة ضخمة من الناس والمباني والأشياء تضحك وتحزن وتستغرب
ما يحدث حولها على طريقتها الخاصة.

ليلة النصف من رمضان، أثنى الليل، فذابت ملامح البلد داخل
غيشة ممائه. ليالي انتصاف الأشهر لها لون معين في حياة
الشهرية. بعد غيشة المساء، يخرج قمر الليل، قرص أحمر مستدير،
يرش البلد بضوء فضي لامع، الذين خرجوا من بيوتهم لصلاة
العشاء في المسجد، شاهدوا القمر، دائرة كاملة، وغيوم الخريف
الكانية توشح أطرافه، السماء لوح من الهدوء، والسحب معلقة بها
وسط النجوم الشاحبة كأنها قناديل الليل للنسبة.

الشهرية أم فتحت ذراعها لكل الذين يعيشون بعيداً عنها .
يستحمون كل مساء في مياه الغربة الباردة كالصفيح، من اليوم

مائه الدمست بيغلي

قال من كتر ناره

« مثل شعبي من زماننا »

الأول للحرب حضروا، مسحوا غريتهم في حوايرها وبيوتها، حكوا عيونهم في جدران بيوتها، الحديث على الستتهم له مفردات أخرى . جلسوا على المساطب، وأمام الدكاكين، قال شاب منهم، أنها أول حرب بعد دخول النور، حواري الضهرية تذب أطفالاً أسفراً يصيحون كل مساء .

— طفوا النور . . طفوا النور .

تماماً مثل البنادير البعيدة،

في الليل، ما إن يفتح باب أو توارب نافذة أو ترفع شراعة، حتى يخرج شريط من الضوء تقتصرى الحارة كلها تحته، وعلى الفور يصيح الأطفال:

— طفوا النور . . طفوا النور .

٢- متى نخل الشاويش فتح الله

والامباشي عدى حياة الضهرية ؟

الضهرية تسمع الآن أصواتاً غريبة، سمعها شبابها المثقلون العائدون من البنادير البعيدة، بعد اغلاق المدارس والجامعات، بأصوات الحرب، في الليل يخرج من الظلام عمود من الذهب الأحمر . يدور حول نفسه، موزعاً ضوءه المضيء على جهات الكون الأربع بالتساوي، اهتزت بيوت البلد أكثر من مرة، قيل إن طلقة مدفع في المطار هي المسبب، الهزة جعلت البيوت القديمة تنذر أصحابها أن

إيمانها أصبحت معدومة، في السوق شاهدوا الجنود يشترون ما يلزمهم، منظرهم محبب إلى النفوس، في القدم جناء خفيف دون جورب، السترة مفتوحة، يطل منها شعر أسود بقرير، الرأس عار، وإن كانت علامات الطوافى العسكرية واضحة فيه، أسماء جديدة دخلت حياة الناس، الشاويش فتح الله والأمباشي عدى، كل اسم ارتبط بعالم من الحكايات، بلده وأقله وقصه حبه المحيط وزواجه الذي لم يتم وإن كان قد تم، فالحديث عن العروس التي انتزع من أحضانها يوم الصبحية، سعادتهم لا تقدر عندما يعشرون على واحد فيهم أصلة فلاح يشم رائحة ابن كاره ولو كان على بعد ألف فدان أرض، يرى فيه أشياء يعرفها، تشفق اليدين، أو سخامة القدمين .

مهرت داير الناحية، سيارات عسكرية، يقال بعد أن بهذا الغبار الناتج عنها، على سبيل التوضيح .

— أنها ذهبت إلى الوحدات العسكرية، أو راجعة منها .

٣- ما هو سر الورلة التي

أعطاهم زملاء مصطفى لامة ؟

دار الأسبوع الأول، بعد رحيل مصطفى بورة كاملة، ما هو ثاني أيام الأسبوع الجديد، ولكن خيراً واحداً لم يرد عن مصطفى، في الأيام الأولى، كانت أمه ترسل الخزالي إلى مكتب البوستة، كان يجلس على الصنطية للقبالة للمكتب، وشمس الصباح خيوط

مستطيلة باهتة اللون، يظل في جلسته حتى تستدير الشمس وتصبح عمودية فوق الرأس، في هذا الوقت الطويل، يكون الساعي قد حضر من التوفيقية فوق دراجته، حاملاً معه كيس الرسائل ووزعت على أصحابها. الغزالي يعود كما ذهب، الشيخ سليمان يمر وقت الخسفي في حوارى البلد، كثرت الرسائل معه بعد الحرب، فحمل كيساً ضخماً حتى يتسع لها، تعودت نوره أن تنتظره، تساله عنائها وملامح وجهها:

- لسه مصطفى ما كتبش لكم ..

في اليوم التالي، خرج الرد من بين شفتيه بمجرد أن راهاه قبل أن تساله، كل يوم جديد، يحمل الرسائل أكثر، هزز من جلبابه إنتقاه. عرف الناس انه يضع الرسائل في جيبه من كثرتها، عند مروره على الدار كان يرفع صوته:

- لسه مصطفى ما ..

وبعضى، في اليوم الأخير، مر بجوار الحائط، لم يرفع صوته ولم يتكلم، الغزالي لم يجد في نفسه حماساً للجلوس على المصطبة كي يشرب صفيح الصباح، مد بخريف يده، نسج من ذبوله وسأله وسادة استراحت فوقها القلوب المتعبة، الأم مشغولة على مصطفى بعد الإفطار، عدت الأيام على أصابعها:

- هو سافر يوم ..

الدمع لا يأتي .. لسع قلبها حين جارف لا يعبر عنه إلا البكاء.

إن احساساً في دمه الدموع يصعد الى الصدر، ولكن العيشتين نلد معهما منذ زمان بعيد .. اليوم يتحدر نحو نهايته وسماء القروب تبدو في انطفاء وجه الأرملة، الغزالي لم يخرج مساء مثل كل الأمسي، آنان العشاء، قرآن السهرة، الليل الغويط، أه من مجيب ليل شتوي ممطوط الوجه، نام الغزالي، أدخل يديه في فتحتي جلبابه ولف ذيل الجلباب حول قدميه، سمع أصواتا وأحاديث، تخيل انه السحور، وإن نوره لم توقظه، فتح عينيه، كانت رموش العين أن تصطم بجسم أسود على الحصيرة، أبعد عينيه، اكتشف انه حذاء مبرى، صعدت نظراته، كانت للحذاء رقبة طويلة، عند آخرها بنظون كاكى، رفع رأسه، كان يتلامس مع السقف الأسود المشتعل بالسناج، صدر رجل يرتدى اقرولا على زاسة طاقية، لم يكن مصطفى.

قام من نومه، تربع على الحصيرة، فرك عينيه بسرعة اكتشف انهم ثلاثة، من اقواهم خرجت الكلمات سريعة، وبصوت عال، كانوا يودون الذهاب، على الحصيرة شاهد اكواب الشاي وأصغاب السجائر وقشر فول سوادى، الجلسة كانت طويلة إذن، جلسوا مرة اخرى امام الحاج الأم واصرارها، اشترط واحد منهم أن يكون الجلوس لمدة ساعة فقط، سمعت أن يبقوا حتى موعد السحور، اعتذروا بسقرات ومواعيد محددة.

- الظروف يا لى.

نورة تجلس، أمامها منقذ عليه براد الشاي. زحف الغزالي على يديه وقدميه فوق الحصيرة، مر بثالثة ظهور بدت عريضة، الستور الصفراء فوقها لم تكن نظيفة ولا مكوية، بين السترة والسرورال قايش أصفر خشن المنظر، مالت عليه نورة قبل أن يسأل:

— زمايل مصطفى.

غرق عيناها في بحار الدهشة. اقترب منها أكثر، اكتملت:

— في مأمورية.

اتسوعب الغزالي الحكاية ببطء. لمست نظراته وجوههم على الحائط، خلفهم تستند ثلاث بناتق، يميز أحدهم عن الآخرين ثلاثة أشرطة سوداء فوق كتفه. عينا الغزالي لم تفارق الضيوف لحظة واحدة، الكل يبحث عن بداية الحديث، كان خبطه قد انقطع بقيامهم. جلسوا من جديد، مما جعل العثور على أول الخطأ أمراً صعباً. سألتهم أم مصطفى كيف عرفوا مصطفى، قال كل واحد منهم حكاية تعرفه على مصطفى. حكاها وسكت. انرك الجميع أن في الفلاح شيئاً ما، يشم، يحس، يدرك ولا يدري أحد كيف يتم هذا.

— رينا يلحن أمهاتكو عليهاكو.

الهمهمة خافتة، تخرج من بين الشفاة غير واضحة، عثروا على بداية الحديث وتاهت العقول بين سيل الأسفاه الغريبة. نظرات الغزالي تتحرك من وجه لآخر استقرت فوق وجه نورة، الخدان أطار من البياض مشرب بحمرة خفيفة. بناخل الأطار مسحة من الجمال، نظرات اقتربت شفتا الغزالي من أنثى نوره:

— فين جواب مصطفى؟

أمسكتة بيدها:

— مايعتش.

أما تنظر إلى الحصيرة، على ملامح الوجه شريط من الظلال، فوق جبهتها شنية متفكرة، بدت وكأنها إحدى ملامح الوجه الطبيعية. أكثر الكلمات كانت عن مصطفى، سألتهم عن موعد حضوره، قالوا إن الأجازات مستحيلة، أخشوشن قلب الغزالي. عرضت عليهم أن تعد طعاماً لهم، يأخذونه معهم، ضحكوا. قال واحد منهم أن الأكل عندهم يسد عين الشمس، رأت في أسوائهم ملامحه. ولست فيها رائحة مصطفى. عاد الصمت فأنبت قى القلوب مخاوف جديدة. كل ما قالوه أن مصطفى بخير. في لحظة انسراقهم، أخرج الرجل حامل الأشرطة الثلاثة فوق كتفه، من جيب سترته ورقة. الضوء خافت والورقة البيضاء أكثر الأشياء وضوحاً في المشهد كله، لوح لها بيده.

— يا توكيل.

أطلت من عينها التساؤلات.

— بموجب التوكيل ده يا أمي.

شرح لها. تلعب أول كل شهر إلى الجماعات، لتصرف مروتب مصطفى. انتشر بداخلها غناء رقران، كلمات غنتها أيام أن كان القلب أخضراً وطرياً.

- وهو.

هزت أيادهم القوية بدها، ثمركوا، كان الغزالي يلف بين قدميه؛

- وصل الضيوف ياغزالي.

حمل الطمعة الجاز وخروج، انطفا من الهواء، فعاد واشعلها في الحجرة، كانت الظلال تتحرك ببطء، ظل الغزالي معهم، إلى أن ألحوا عليه بأن يعود، وهو عائذ إلى البيت شعر برغبة في الشفاء، ولكنه خاف ملامح وجه أمه المتعبه فسكت.

٤- عندما دخلت كلمة الاستراتيجية

في محضر رسمي ؟

الجلسة المفضلة للرجال بجوار ترعه تدور حول البلد، يقرؤون على صفحة مياهها ببطء أياهم، وقت الغروب تكون حمراء، تبدو في بياض القطن المتدوف، عند برودة الفجر، أما طول النهار فزرقاتها مغموسة لامة. النهارات الصحو في أكتوبر حالات كاذبة. وشمس الشتاء قيمة صفراء. السحب تمر بهوء وبطء من تحتها وفوقها. الرجال يتكلمون، على الشفاء ترقص الكلمات والتعابير تقال باللغة العربية الفصحى، تنزلق على الأسمنة، الأصابع تمتد إلى الترابيهات تبحث بمفاتيحها، تحولوا إلى كل الاتجاهات، تلتصق بها الآن، الذين يصيبه الشنى وهو يحاول أن يفهم ما تصبده الأذان من

أصوات. الشيخ سليمان. موزع الخطابات له أكثر من عمل آخر. أممها أنه يشرح للناس ما يحدث.. لا يدري أحد من أين يجد اليقين الذي يستريح له في حكاياه هذه، يقترب من حلقه الرجال، يرمى عليهم السلام ويبدأ الحديث، بعد كلمة أو كلمتين. تمتد أصابع الشباب لتعبد النظرات الطبية إلى مكانها الطبيعي فوق الأنف.

قال الشيخ سليمان؛

- أصل الاستراتيجية.

الكلمة الأولى كانت عامة، الثانية لم تخرج من بين شففته صحيحة، عدوى الابهتامة لغت دائرة للحيطين به، يسألونه، الجهل اتهام جاهر على لسانه، يرمى به الكل - واية معنى الاستراتيجية.

الشباب نطقها صحيحة، فاستقر في وعى الشيخ سليمان احساس بالقهر.

انتفض الشيخ سليمان؛

- أيه شغل للدارس دأيا ولد أنت وهو؟

كالعادة، انتهت الجلسة بمحضر صلح مكتوب من أصل وصورتين وموقع عليه من المتعاريكين جميعاً، بالاً يتعرضوا لبعضهم بعد ذلك، ومعتمد من العمدة وشيخ البلد، الخفير النربشجى الذي يكتب محضر الصلح في دوار العمدة وقف طويلاً أمام الكلمة سأل الشاب؛

— إلا إله الكلمة سنب العراك.

نطقها الشاب أكثر من مرة. ولكن الخفير لم يستطيع كتابتها. ضحك الكل. ولكن الخفير حول الموقف لصالحه، بأن خبط المنضدة بكلوة يده. وأمر الشاب :

— استهجي الكلمة يا أستاذ، حالمتحك.

قال الشاب وسط الضحكات:

— ألف لام الف، سين، ته.

٥- في الصباح والمساء: تليفون العمدة يدق ؟

في فجر اليوم الخامس عشر بعد رحيل مصطفى، وقع حادث هن الضهرية كلها. شاهد خفير البرك المعين في أول البلد من الناحية القبليّة. مع أول قطرات الضوء نقطة بعيدة تتحرك ببطء. على آخر الشوف. كانت النقطة تتحرك وتتوقف. ترتفع وتنخفض. الفجر هو أحلى أوقات النوم في الليل كله. ولكن الخفير أصبح يقظاً. عندما انعكس على حديد بندقيته الصدى أول خيط رفيع من ضوء الشمس كانت النقطة قد أصبحت عند مشارف البلد، النقطة لم تكن سوى شاب من أبناء البلد، عرفه الخفير على الفور.

— عبد الله . مالك ؟

اندفع عبد الله لم يرد . . مد يده للخفير الذي اقترب منه. وبدلاً من السؤال والجواب، أمسك بيده اليسرى. لفها حول كتفه، حمله

وسار به. كل الذين شاهدوا الخفير وعبد الله. كانوا مذهبين إلى الجامع للصلاة أو الحقول للعمل. كلهم عادوا، ساروا وراء الخفير الذي يستند عبد الله بلّ يحمله من حارة لحارة. ازداد العدد، أطفال ورجال وشيوخ ونساء، تهاشوا . . ففضحهم البهتان الخارج من الأفواه مع الكلمات. وعكرت الهمسات صفو الحارات وهدها الصباحي. فسكتوا. حينما وصل الخفير إلى باب بيت عبد الله. كانت الضهرية كلها وراءه، خبط الباب بقدمية. وبغل الخفير سائدا عبد الله. خرج الخفير بعد قليل بمفرده. ليؤكد لهم. ان عبد الله أصيب برصاصة في فخذه، عبر وحارب وأصيب. عولج في المستشفى العسكري وحضر في أجازة مرضية. وإن كان الجرح لا يزال طويلاً، قال رجل متعلم:

— يعني في فترة نقاهة.

سأله الخفير:

— فترة إيه ياخويا ؟

نيت من الكتلة الواقعة من الناس، سؤال واحد:

— عقبال ابننا يارب

قالتها أكثر من امرأة. وهن في الطريق إلى بيوتهن. وفي دوار النعد. كان التليفون يدق. بقاته تحرك الخفير التويجي الذي يقوم مسرعاً كاللسوع. يمسك السماعة بيده. يقرعه من أذنه وينصت. خطوط انتعاب تستريح على ملامح وجهه.

— يصير انتبيه على الجندي مرزوق أبو السعود. بتسلم نفسه

إلى مكتب التعبئة بمركز أيتاي البارود، ليس متأخراً عن سعت. .
يوم. .

يحمل المراسلة النوبتجي الإشارة - مكتوبة على ورقة صغيرة
مشرشرة الحواشي يذهب بها إلى العمدة، أو نائبة يقرأها بشمهل.
ويطعمه الأبنوس القديم يؤشر عليها . . للتعبية على الذكور،
والتوقيع منه بالمعلومية. يذهب الخفير المراسلة إلى بيت مرزوق،
وهو يفهم ما سيحدث هناك.

لحظة الوداع. ستقول أم مرزوق له بحروف مغموسة في دموع
العين:

- أول ما توصل أبعث لنا جواب ياكيدى.

كنا قد تقابلنا صنفه، مانقنى بحرارة، وأى ما ألت إليه حالى، غير
ان تجاهل الامر، كى يفهمنى انه ليس خطيراً، ولا يستحق الاهتمام،
قلت له، وأنا نادى ارتباكى، ان صنفه ربما كانت خيراً من ألف
مبدأ، ريت على ظهري ضاحكاً، وقال : ان حياتنا مجموعة من
الصنف، الحسنة أو السيئة، اكمل حديثه. ان الحياة صنفه كبيرة،
يخططها المليون ويبنى عليها السذج، ويقدموها الشعراء، ولا
يعيشها فى نهاية الامر سوى الحمقى.

امتد الصمت بيننا، ورحنا من خلاله تجمع شمل الذكريات
القديمة، ضابقتى عدم سؤاله عما ألت اليه الحال، حرك يديه. بدأ لى
الموقف غير محتمل، عند هذا الحد، أشار إلى الناحية الأخرى من
الميدان، وسألنى :

- كنت عند الدكتور أمون ؟

دهشت.

- كيف عرفت ؟

- وذهبت إلى معمل التحاليل الطبية فى شارع الزهور ؟

- صحيح، ولكن

- لا تسأل.

ازدادت دهشتى، سألته عن وجهته. قال لى، انه نزل كى يقابلنى،
لكمل قبل ان أسأل، ان هذا الموعد، قد ضرب بيننا منذ ستين يوماً

مضت. لقد كلن يعرف من قبل، اننى سأعبر هذا الميدان، فى هذا
الوقت بالتحديد. غرقت فى بحار من الدهشة، أثرت الصمت. قال لى
- يجب ان يتمشى كثيراً، فالجلوس يؤلم قدميه. ثم توقف عن
الحديث اندركت ما يجول بخاطرهم، لا بد وانه فكر فى ان يدعو لى
اتمشى معه قليلاً، ولكنه تذكر حالى، فاندرك سخط الدعوة. اثرت
إلى مقهى صغير فى الناحية الأخرى من الميدان، عرضت عليه ان
نجلس فيه قليلاً، ثم ينصرف كل منا لحال سبيله، فوافق. وعندما
سرتنا، نظر إلى نظرة خاطفة، كنت اعرج، واعتمد على عصا كانت
معى. - بيد انه تشاغل بالنظر إلى الناحية الأخرى. نظرت إليه،
سارالت له نفس النظرة الحاملة، واقتصر الغزير والملابس النظيفة، بدأ
يخلق فى سيره. تذكرت ما قاله لى فى بداية لقائنا، فاندركت اننا قم
نلتق صنفه، فاستبشرت خيراً. واقترب منى، قال ضاحكاً :

- والله زمان .

ضحكنا لحديثه، ولكنى لم اقل شيئاً.

كان الوقت مساء، جلست، جلس قبالتى، ركنت عضائى بجوار
المنضدة، مددت يدى فى جيبى، اخرجت التحاليل الطبية، وضعتها
امامى. وعندما حضر الجرسون طلبت شيئاً. امتدت يدى إلى مطفأة
السجائر، رحت افرغها من محتوياتها، وانظفها بعناية، استغرق هذا

العمل وقتاً. كان المقهى يحل على أحد الميايين الصغيرة، وفي
الليمان، كان زحام ساعة الغروب والسرعة، وضجيج السيارات،
وأصوات الرانير التي لا مفر منها، طلب «شيشة» وراح يدخلها بيده
وهو يتسلى بمتابعة بخان الشيشة بعينه، قال وهو يدخل دون أن
ينظر إلى :

— حدث ذلك، في العمر اياه.

— صحيح.

— كان الوقت يشبه لحظة ميلاد النهار أو لحظة موته.

— صحيح تماماً.

— أما عن اليوم، فلم يكن هناك ما يميزه.

صمت من جديد، اقتربت منه، حاولت أن اتكلم موضعاً الأمر.
بدأ لي الصمت أكثر أمناً، كان ما يشغل ذهني، هو كيف عرف
الصديق القديم ما قاله لي؟ كنت أود أن أقول له، أن الطبيعة تشفق
عليها في مثل هذه اللحظات فنصاب باغماء صغيرة، قبل وقوع
الخطر بقليل، ثم نفيق بعده، فنجد أن ما حدث قد حدث. كنت أود أن
أوضح له الأمر أكثر من ذلك، كنت أذكر الكثير. وعانت على
الشفقين كلمات نسجتها اللحظة الحاضرة. وأحسست برعشة
جديدة، حلوة وطرية وطارئة، نفضت عن القلب والذهن واللسان
صدأ الأهم وتذكرت رائحة قريتنا فجر الليالي المطرة، وشمعت
عبق الأرض المختمرة بمياه الأمطار، ورائحة أزهار التارنج وسمعت

طنين التعل، فرفعت يدي، لوحث بها في وجه صديقي :

قلت له :

— يا ألف مرحب.

— أهلاً بك.

— ٣ —

كنت قد سمعت أحد الزملاء يقول :

— لن يفهمنا الناس.

ردد عليه آخر :

— لقد ساء موقفنا.

قال ثالث :

— لقد كانت الشظية من القوة بحيث أصابت جنبه الأيمن، فأخذ

الدم ينزف منه بغزارة، حملناه فوق ظهورنا وسرنا، أسترخنا في
الطريق مرثين. غير أنه مات في منتصف الطريق. لم يستطيع أحد
من أن يساعد.

أخر ما إنكره، قبل أن يحدث الأمر. اننى تناولت زمرية المياه
بجهد، اندركت أن يدي سليمتان، كانت أصابعي موجودة بالفعل،
تشير إلى شيء ما كمنابل عجفاء، وراحت يدي ترتجفان وأنا أرفق
قطرات الماء. في طريق العودة كان القطار يسير بهبط، كان يقف في
الحظاظ الصغيرة. لم يكن هناك ركاب، كان يقف ريثما ينزلون منه
الموتى. لقد تكرر وقوفه كثيراً.

- سألني، كيف أقضي وقتي؟ قلت له : انني استيقظ في الصباح، وبعد تناول الإفطار، اتعب إلى المستشفى، حيث أخذ جلسات كهربائية على ذراعي وقدمي السليمة، ثم اعود إلى المنزل. وفي المنزل، انتقل بين الحجرات، أو اجلس امام النافذة، حتى الظهر. وبعد تناول الغداء، انام نوماً كالأغصاء. وفي العصر اتعب للطبيب لإستشارته أو لأجراء بعض التحاليل الطبية، أو اجلس في مكان ما، ثم اعود إلى المنزل، في نهاية الامر، قلت له : انني لا يصح لي ان اكثُر من الحركة، خاصة في مثل ظروفى، غير ان جلاوة الروح، تدفعني إلى كل هذا، انني اعود إلى منزلى كل مساء وقد اشرفت على إنهاية، وأقسم ألا اخرج بعد ذلك ابداً، واتخذ القرارات، وأخطط وأشرع غير اني في لحظة موت النهار، لحظة سقوط الليل، اقوم كالنسوع، وأقول لنفسى، ان هذا الليل لو نزل على واما في المنزل، فساموت هذا المساء.

- ألا تزور الأصدقاء القدامى؟

- أحياناً.

- والعمل؟

لم أرد عليه، اشرت إلى ساقى بيد مرتعشة.

- كما ترى.

قال :

- أقصد ؟

- من ناحية المرتب، أتقاضى معاشاً لا بأس به، وأعالج على نفقة إحدى الجمعيات.

قال في بعشة :

- ولكنك لم تصل إلى الثلاثين بعد .

لم أرد عليه، سألني وهو يشير إلى الاتفاق الجعيد.

- ومستقبل الأيام.

بدت لي أحلام الصبا والشباب كذكرى بعيدة، وجدت أن الحال مختلف اشد الاختلاف عن ايام الدراسة .

غرق كل منا في صمته، صفق بيديه، طلب تاراً، وضعها على الشيشة وواصل التدخين، بدت كلمته الأخيرة، تساؤلاً أكثر منها سؤالاً يطلب الأجابه.

كان الليل قد حل، وأضحى المبدآن، ومناخل الشوارع المتفرعة منه، غارقة في بحر الاضواء والظلال، اشار بيديه دلالة التسليم.

قال :

- لا أحد يعرف ابن مصلحته على وجه التحديد.

وضع مبسم الشيشة على للتشيدة، ومسح قمه بيديه، واستند إلى ثم اقترب منى :

- اسمع، سأحكى لك حكاية .

يحكى انه حدث في الايام الاولى، ان كان هناك سبعة من

العميان، أحسوا بسوء الحال. وراوا بقلوبهم ما آلت إليه الحال في بلادهم. فقرروا الهجرة، بحثاً عن أرض جديدة. أمسك كل منهم بيد الآخر. وقالوا مرحباً يا زمن الشزوح والترحال وسافروا. في الصدور كلام الله. وفي القلوب أمل بالعثور على أرض جديدة. وخلال سيرهم اعترض طريقهم فيل ضخم الجثة. سد الطريق أمامهم. شاماً. توقف العميان وتشاكروا أحوال هذا الزمان، ويكى كل منهم حزنه الخاص وقرروا أن يعرفوا ما يسد طريقهم، وبأيديهم راحوا يتحسسون الواقف أمامهم. أمسك كل منهم جزءاً صغيراً منه، وخمن ما يكون. قال أحدهم : انه جمل. وقال آخر : بل حصان. وقال ثالث : جذع شجرة عجوز. وقال رابع : بناء ضخم. قال كل منهم كلمة. بيد أن أحدهم لم يدرك أن الواقف أمامهم فيل ضخم الجثة.

— وهكذا نحن في الحياة.

ثمة شمالات من كلمات تسرح بناخلي. والعقل يطير ثملاً بضباب الشك، وراحة اليقين مكان لا وجود له على الأرض.

— ٥ —

كان قد استغرقني تفكير فيما قاله لي. ورحت اتابع المارة في الميدان. اقترب صديقي مني. كان الحائط الذي تجلس بجواره مرأه عتيقة. وعندما استلذت إليه، رأيت وجهينا معاً متقابلين. ان الشفاه تتحرك، وملامح الوجوه تعبر عما نقوله. قال لي انني ابدو متعباً

لحد كبير. وإن ذلك ليس من مصلحتي، أفهمته بصوت منخفض، انني نعتت الى أكثر من طبيب، واختلطوا جميعاً بشائتي. قال لي أحدهم، انني مريض بأكثاب نفسي. وقال آخر : ضعف وتوتر في الاعصاب. وقال ثالث : انيميا. قلت له : انني متعب من سرده حكايتي عليهم. وأرد على استلثتهم، تناولت الادوية ورفضت لتعليماتهم. غير أن الامر لم يجد شيئاً. ومازالت الحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. قلت لصديقي : انني ما زلت في ايام الشباب ولكنني اشعر ان العمر قصير. وإن الايام تمر على بلا احلام. رفع يده محاولاً أن يوضح الامر لي. غير اني كملت، انني في ساعات الليل، في حجرتي الصغيرة، اسمع صوتاً مبحوحاً، يقطر حزناً ودمماً وبكارات مستباحة، يعلق على ما حدث، يتحدث عن الذي لم يحضر بعد، والذي يأتي ولا يأتي. قلت انني صحت من نوعي ذات صباح، فاكتشفت انني اصبحت كهلاً، وإن ايامي شاخت قبل أن تبدأ. ان السن تشمل معها لكل انسان النموذج الخاص به من الدمامة والقبح. انها لتجربة قاسية ان ينادى الانسان فلا يستجيب لندائه احد، ان النجوم في الطرقات الخلقية الضالمة شاماً، المغسولة بالصمت، سرعان ما تفقد بهجتها، وحتى العمر يفقد نضارته.

— فيه حل.

انصت إليه.

— هناك سيدة عظيمة.

- أين هي . ٩٠ -

- عند أطراف مدينتنا

- وهل نجدها؟

- وجودها باسمرار غير مؤكد.

- واحتمالات الشفاء.

- سبق أن ذكرتك بالخبر منذ مدة.

- أئن نحاول

هدر في داخل شلال الأغنياء الثقيمة رجوت أن يهتم بالامر.
قلت له انني لا اطلب سوى الشفاء. هل اؤمن بالغيب واين ما
تعلمناه؟ لم تقل من قبل : العلم بدل الغيب؟ قلت له : الشفاء ولا
شيء سواه. انبجعت في سرايين القلب قشعريرة حارة. عشت زرقه
السماء الصافية في قريتي. وخضرة النباتات الزاهية وسمرة الارض
الغامقة. وسمعت انين الرياح في ليلتي الشتاء.

قال :

- لو وجدناها فالشفاء مؤكد.

عاشق يا مولاتي، عندما استمعت إلى كلمات صديقي القديم.
وجدت في العميون حزن السنين القديمة وتذوقت على الشفاء ملحوه
البحار البعيدة وعذوبة الينابيع البكر.

قال صديقي، اننا سنركب، حتى حدود مدينتنا البحرية. وهناك .
على شاطئ النيل سنعبث النهر إلى الناحية الأخرى. وبعد ذلك

سنسير في طريق طويل . يدور بنا حول حقل وساقية وببيت
مهجور ومنازل قديمة. ثم يعود الطريق بنا إلى شاطئ النيل مرة
أخرى . وهناك مكانها المعهود.

- قلت ان مولاتنا ذكرتنني بالخبر ذات مرة .

- حدث ذلك

- ما المتأسية . ٩٠ -

صمت، غير انه كان هناك سؤال بدا لي ملحاً بدرجة لا تقبل
التأجيل، ورغم جميع تحذيراته. قررت ان اسأله اياه. اقتربت منه،
رفعت يدي في المسافة بين وجهيه.

قلت له :

- هل سبق أن ذهبت إليها . ٩٠ -

قال لي بوجه متجهم :

- قلت لا تسأل.

احسست انني افترقت في الشخص أمامي، صديقي القديم. قررت

ان اصارحه بذلك، وبدت لي المصارحة موقفاً معقولاً الى ابعد حد.

ولكني لم اقل له شيئاً.

- ٦ -

تعبنا، دفعت الحساب، لم يكن معي فكة، انتظرت حتى احضر

الجرسون الباقي. وقفنا أجدنا امام الآخر، رجوته ان يبلثني على هذه السيدة. قال لي، انه سيمر على في ظرف اسبوع كي نذهب معا إليها. ضحكت ذكرت انني مازلت في اول ايام الشباب. وانني في حاجة الى حدوث معجزة، تعيد كل شيء إلى ما كان عليه. فقلت لنفسى، ان لقائي بالصديق القديم، سيكون البداية والنهاية معاً. اخرجت من جيبي ورقة وقلماً، طلبت منه ان يأخذ عنواني ويعطيني عنوانه. انه يذكر منزلنا جيداً. وأما عن عنوانه، فليس هناك داع لذلك. قال لي، ان كل ما على ان انتظره في المنزل. وان لا اخرج لاي سبب وسيحضر الى. سلم على، قال لي : ان هذا اللقاء أسعده إلى ابعد الحدود. وانه سيسعده ان نلتقي بعد ذلك كثيراً. ثم لي ليلة سعيدة، ابدى استعداده ان يوصلني الى منزلي، ان كنت في حاجة إلى ذلك. شكرته، وان كنت احس بما يشبه وخز الأبر تحت القلب، سار. استندت إلى المنضدة. نظرت إليه. كان يشبك يديه خلف ظهره. وقد احني كتفيه. وبدأ رأسه متدلياً الى اسفل. كان يسير ببطء. وبدأ لي انه ينزع قدميه من الأرض بصعوبة. جلست في مكانى. طلبت كوباً من الماء البارد، اخرجت منديلى. جففت به نقاط العرق المتجمعة. فوق جيبى، شربت الماء، ومسحت فمى يدي. قمت من مكانى. امسكت العصا، وضعتها في تجويف ابطنى. ورحت اسير عابراً للميدان. وعندما أصبحت في الناحية الأخرى، هبت على نسمة هواء خريفية، حاملة رائحة الشتاء المقبل، فذكرتنى بان عاماً

من العمر قد مضى بكل ما فيه. اكملت سيرى. تذكرت اننا غيرنا مسكننا مرتين. وان المنزل الذى كان يتردد على فيه صديقى القديم. ليس له وجود الآن. هدم بعد ان تركناه. وتذكرت اننى لا اعرف عنوانه، عندئذ همست في داخلي صوت يحجج يقول : اننى لن ارى صديقى القديم بعد ذلك أبداً.

الفهرس

- ١- الهم ٥
- ٢- رحلة البحث عن مصر الأخرى - شهادة شخصية
جدا - ١١
- ٣- شهادة الفلاح الفصيح في زمن الحرب ٣٧
- ٤- الحرب في بر مصر ٩٣
- ٥- السفر ١٢١
- ٦- في الاسبوع سبعة أيام ١٣٧
- ٧- تجفيف الدموع ٢١٩